د. عبد الله حمادي

الموريسكيون

ومحاكم التفتيش في الأندلس

1492 - 1616

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

الدار التونسية للنشر
تونس

د. عبد الله حمادي

الموريسكيون
ومحاكم التفتيش في الأندلس
1492 - 1616

الدار التونسية للنشر
تونس

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

ISBN 9973 . 12 . 133 . 3 .

الإهداء

إلى المرحوم والدي بومنجل بن ابراهيم بن جابر
بن احمد بن يوسف حمادي اليوميني...

تمهيد

التركيبة البشرية للمجتمع الأندلسي في ظل التسامح

لقد أجمع العديد من المؤرخين، ودارسي علم الاجتماع والأجناس على أن الأقلية المُورسكية التي بقيت على أرض شبه جزيرة إيبيريا (اسبانيا) بعد تسليم غرناطة عام **1492** م، كانت تشكل شريحة بشرية غير متجانسة مع الاطار العام الذي كان يُسمَّى آنذاك باسبانيا المسيحية؛ ولقد طفح عدم التجانس هذا في ظهور أقلية المورسكيين بمظاهر حياتية تتناقض والاطار الاجتماعي الشامل فشكلت بداخله ما يشبه البُحيرة التي تنغلق على أسرارها وتتفاعل عناصرها فيما بينها مستمدة منها حيويتها بفضل تعاضد أفرادها فبرزت خصائصها ناطقة بمراسيم دينية إسلامية، وعلاقات اجتماعية تُمارس بلسان عربي بالاضافة الى انتماء الى مخزون حضاري لم يعد لوجوده في الواقع أي إطار يمثله؛ إلّا أن هذه الأقلية المورسكية أصرّت وتُصِر برغم ما يحيط بها من وسائل التضييق والعنف على التمسك بهذه الوشائج الحضارية التي لم تعد تستمد قوتها وفاعليتها من إطار عام وشامل؛ بل صارت تعتمد على مخاض داخلي يتشبث في معظمه بوشائج لا شُعورية ممثَّلة في انتماء لماض مضى وتقلّص من بساط الواقع، وترك ما ترك من بين فضلاته هذه الأقلية تُواجه مصيرا كُتب عليه الصراع من أجل البقاء أو الاضمحلال.

وقد كان لمشكلة عدم التجانس هذه ما جعل استحالة التعايش والاندماج بين الطائفتين في مختلف أوجه الحياة بما فيها الاجتماعية

والثقافية، هو الأمر الذي شخص التناقض ووسّع هوّة التلاقي بين طرفين حُكم عليهما بالتعايش فرضا داخل إطار جغرافي واحد وتحت اختيار سياسي واحد.

إن التجديف ضد تيار الحتمية التاريخية كما هي الحال بالنسبة للموركسيين كأقلية داخل إطار عام غير متجانس معها جعل مصيرها يوضع على مِحك التجريب الميداني الأمر الذي دفع بالعديد من الدارسين المتخصصين في تاريخ الموركسيين أمثال : Pascual Boronat وLouis Cardaillac وJulio Caro Baroja وAntonio Dominguez Ortiz وغيرهم، يسعون جاهدين لإماطة اللِّثام على مثل هذه الثنائية الغريبة المتشبثة بحقبة تاريخية معينة، قصد استخلاص المواصفات الموضوعية الكافية والدافعة بكلتا الطائفتين المتصارعتين الى الاصرار على التقوقع داخل مقوماتهما الذاتية وعدم السماح بإيجاد لغة مشتركة للحوار والتعاون والتعايش. إلّا أن نظريات الدارسين نجدها قد تضاربت وذلك بحسب الدوافع والمشارب مما جعلنا لا نظفر بشبه إجماع يكون شافيا لحدة التساؤلات التي ما تنفك تلح بحضورها كأن تجعلنا نستفهم لماذا أصرَّ الموركسيون على عدم المحاولة للاندماج ورفض مبدإ التعايش مع الأكثرية المسيحية المتغلبة؟ أو لماذا أصر الطرف المسيحي الغالب على محاولة إلغاء مقوِّمات الشخصية الحضارية للموركسيين، وضرب أعزّ ما لديها كالدين واللغة؟ لماذا أصر الموركسيون على التشبث بالأرض التي رفضت وجودهم الحضاري واستبدلتهم بغيرهم؟ لماذا هذا الأمل الغائب الرجاء الذي يسكن الذهنية الموركسية التي كانت تدرك أن الواقع لا يسمح بتحقيق ذلك؟ لماذا هذه المحاولات اليائسة من طرف الموركسيين في خلق مقوِّمات حضارية جديدة كالأسلوب «الالخميادو» مثلا عسى يضمن لهم الاستمرار برغم أعْين محاكم التفتيش اليقظة والمتحفزة لكل طارىء؟ لماذا؟ ولماذا...؟ تساؤلات عديدة لا يمكن الاجابة عنها إلّا اذا نحن تتبعنا خيط المأساة الرفيع والطويل. هذه المأساة التي من الجائز أن ننعتها بأنها فريدة من نوعها في المسار التاريخي الطويل والمليء بالمآسي والمظالم للحياة البشرية.

بادىء ذي بدء يجدر بنا أن نتتبع بشيء من الوصف الموجز إشكالية عدم التجانس أو التعايش بين الطائفتين المسيحية والاسلامية في هذا المنعرج التاريخي الخطير، وفوق أرض شبه جزيرة إيبريا التي برهنت قبل هذا الموعد على أنها حققت مثل هذا التقارب والتعايش السلمي الذي تحول الى فرضية مستحيلة بعد ما يقرب من ثمانية قرون من ممارسته على أرضية الواقع.

إن إشكالية التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين إشكالية قديمة قِدم طلائع الفتح المغربي الاسلامي لشبه جزيرة إيبيريا تحت قيادة طارق بن زياد الزناتي عام 711 م.

لقد لفت الأديب أبو الوليد بن نصر نظرنا في كتابه الموسوم بأشهر عائلات فاس الى العناصر الأربعة الكبرى التي تعايشت على أرض الأندلس حسب رأيه وراح محددا هوية هذه العناصر بترتيب معبر فجعل في مقدمة العناصر الوافدة العنصر البشري الذي ينتمي الى البيت الهاشمي، وقد وفدت عناصره من شبه جزيرة العرب ومن العراق والشام ومصر وافريقيا الشمالية. أما العنصر الثاني بحسب ترتيبه فهو عنصر القبائل العربية ذات الأنساب الشهيرة بالاضافة الى مواليها، أمّا في الترتيب الثالث فقد ذكر المغاربة ونعتهم بالبرابرة الوافدين من شمال افريقيا في أعدادهم الهائلة. أما الترتيب الرابع فقد خص به الأهالي الأصليين لشبه جزيرة إيبيريا[1]. فبهذه العناصر الأربعة ظن ابن الأحمر أن المجتمع الأندلسي قد تشكل؛ ونحن بدورنا لا نعارضه على هذا التقسيم بل يحسن بنا أن نضيف اليه بعض التوضيحات حتى يكتمل الاطار فنقول إن الذين خصهم ابن الأحمر بعنصر الأهالي فإنهم كما نعلم كانوا بدورهم خليطا من ثلاثة عناصر أو أجناس أو أكثر، فالمتخصصون في هذا الميدان يجمعون على أن سكان شبه جزيرة إيبيرا قبل الفتح كان من بينهم

(1) انظر :

— Dr. don Joaquím Vallvé: **libertad y esclavitud en el Califato de Córdoba**, pp. 565-566.

— **Actas de las II jornadas de Cultura arabe e Islámica (1980) I.H.A.C. Madrid.**

عنصر هام هو العنصر الايبيري الذي ينحدر من أصول إفريقية والأقرب الى الظن هي من شمال افريقيا حيث تم وفودها على شبه الجزيرة تباعا بحسب الموجات البشرية المتعاقبة عبر التاريخ وقد استقرت أغلبية هذا العنصر بالمناطق الجنوبية.

أما المناطق الشمالية والوسطى فقد تقاسمتها عناصر كتلك المعروفة بسلالة «الثِّلتا» المنحدرة من أصل اسكندنافي، والجرمانية التي عرفت بالقوط واللاتينية بشقيها الاغريقي والروماني؛ فهذه العناصر مجتمعة هي التي يشير إليها ابن الأحمر باسم السكان الأصليين وقد كانت ساعة الفتح تشكل العنصر الأكثر كثافة سكانية : ومن هذه القاعدة العريضة الواسعة انبثقت ثلاث مسميات نوجز القول فيها فيما يلي :

1) المولّدون :

وهم أولئك الذين اعتنقوا الاسلام بعد اقتناع وتحوّل معظمهم الى موالي الفاتحين وخاصة منهم البربر وذلك لسبب بسيط مفاده أن المغاربة كانوا يشكلون غالبية الفاتحين وهم كذلك صانعو مهمة الفتح، ويؤيد رأينا هذا المؤرخ ابن القوطية الذي تنحدر جذوره من أحفاد «سَارة» القُوطية ابنة الملك القُوطي Witiza فكان هذا المؤرخ من موالي البربر ولم يكن من موالي العرب. كما تشير بعض المصادر الى التشكيك في نسب العديد من الاسَرِ البارزة والمتبربرة والتي كانت لها مكانة أيام الطوائف مثل بني رزين حكام السهلة (البرّازين) وكذلك بني الافطس ببطليوس، وبني ذي النون الذين ينحدرون من أصل إغريقي لاتيني هو (زينون) وقد ملكوا كما نعلم جبال كُونِْكا شمال طليطلة وكذلك طليطلة وكانت بعض المصادر تعرّفهم على أنهم من أصل مغربي بربري، إلّا أن أحدث الدراسات لا تقر هذه النظرية وترجع أصولهم العرقية الى سلالة المولّدين، ويستحسن في هذا المجال الرجوع الى ما كتبه كل من المستشرق الفرنسي(2) Pierre Guichard والمستشرقين الاسبانيين

(2) انظر — Pierre Guichard: **Tribus arabes et berbères en Al-Andalus** traducción Española: **«Al-Andalus. Estructura antropológica de uná sociedad islámica en Occidente** (Barcelona, 1976).

Bosch Vilà[3] و Joaquim Vallvé[4]. وكما سبق وأن ذكرنا فإن القاعدة الواسعة لسكان شبه الجزيرة الأيبيرية ساعة الفتح كانت مُشكّلة من هذه العناصر التي دخلت الاسلام فانصهرت مع عناصر أخرى، فمنها من فضّل الذّوبان فاصطنع لأصوله انسابا جديدة غالبا ما كانت مستوحاة من أسماء القبائل التي انضووا تحتها بالولاء، وبعضهم انسلخ عن أصوله تماما واخترع لنفسه أرُومة عرقية جديدة كما فعلت أسرة ابن حزم مثلا والتي كشف عن خباياها المؤرخ الشهير ابن حيان القرطبي[5]. إلّا أن بعض العائلات فضلت أن تدخل بعض التحريف على نسبها الأصلي كما فعلت أسرة «Casus» اللاتينية الأصل فأصبحت تُعرف ببني قاسم وكذلك الحال بالنسبة لبني ذي النون (Hijos de Zenón).

2) المستعربون :

هم الطائفة الذمية التي بقيت على نصرانيتها دون إكراه ولا مساومة فأصبح هؤلاء يتمتعون بحقوق ويقدمون واجبات مما خوّل لهم أن يعرفوا إما بالمسالمة أو المعاهدين أو كما تسميهم المصادر اللاتينية بـ «Mozarabes» أي المستعربين، وكان لهذه الطائفة أن ترضى بالأمر الواقع وتعمل على تنفيذ مبدإ التعايش أو الاندماج الأمر الذي سمح لها بأن لا تتخلف عن ادارة شؤون الخلافة فكان عبد الرحمن الناصر الخليفة مثلا يضمّ في حرسه الشرفي فرقة من المستعربين المسيحيين حتى أصبحت هذه الطائفة تتمتع بحرية الرأي والقرار المتعلق بشؤونها الدينية كما كانت تتمتع حقا باستقلالها الذاتي الذي ضمن لها حرية المعبود وحرية التقاليد، وحرية المعاملة والتعايش الآمن داخل إطار عام مكيف بجو من التسامح الذي لا يكره ولا يجادل فيه إلّا بالتي هي أحسن. وكانت معاهدات حكام المسلمين مع أهل الذمة بمثابة المواثيق السماوية حيث لا يجرؤ أحدهم مهما بلغت سطوته على انتهاكها أو

(3) انظر — Jacinto Bosch vilà : **El elemento Humano Norteafricano en la Historia de laEspaña Musulmana** (separata de la Revista), «cuadernos» de la Biblioteca Española de Tetuán», Novembre 1964, N° 2 pp, 17-37.

(4) انظر — Dr J. Vallvé: **Libertad y Esclavitud...** pp. 568-569

(5) انظر : ياقوت الحموي : **معجم الأدباء**... المجلد 12 ابتداء من ص 235.

تحريفها، وظل حال المستعربين على أحسن ما يرام الى أن عبثت بعض العناصر منهم بالثقة المتزايدة، وبدافع ديني حاقد على انتهاك حدود الجوار والتعايش، فراح بعضهم يخرق الأعراف ويعلن عصيانه ويلقى بنفسه الى التهلكة حتى يضمن لنفسه مرتبة المجاهدة والتضحية وزاد الحد ببعض المغرضين أن أثروا في ذوي العقائد الضعيفة من المولّدين فلم يتردد بعضهم من إظهار ردّته كما حصل مع المنتزي المشهور عمر بن حصفون[6] ، أو مروان الجليقي أو الرياحي المعروف بأرذبلش، أو بني صافاريكُو، وبني آنجلينُو بناحية إشبيلية إلّا أن هذه الثورات التي تراوحت حدّتها، ما انفكت أن عرفت تراجعا وانكسارا أعاد مياه التعايش والأمن الى مجاريها الطبيعية.

3) الشعوبيون

بعد انكسار محاولات التمرّد المسلحة لجأ بعض المستفيدين من معاهدة السلم والتسامح الى التعريض بالعنصر العربي على وجه الخصوص، وممّا تجدر الإشارة إليه أن شعوبية أهل الأندلس لم تتجاوز حدود اللياقة حيث ظلت بعيدة عن التعريض بأمور الدين والمعتقد، بل كان وازعها هو الصراع السياسي من أجل التفوق في ميدان الحياة والفوز بمنصب القرار والقيادة لهذا تراءت ظاهرة الشعوبية متواضعة في الأندلس اذا قِيست بما عرفته بالمشرق العربي الاسلامي ! إن شعوبية بعض المولدين يعود الفضل في اكتشافها الى مجهودات المستشرق الألماني الشهير ڤولدزيهر في كتابه :

«Die Su'abijja unter den Muhammedanern in Spanien.

Z.D.M.G. 1898» .

---

(6) عن ابن حفصون المتمرد انظر :

— **Una crònica anònima de ʿAbd al-Rahmān III al-Nàṣir :** Editada y por E. Lévi - Provençal y Emilio Garcia Gomez, Madrid, Granada 1950, pp. 37..,

ـــ وانظر كذلك : **المقتبس** : لابن حيان، ج 5، تحقيق بيدرو شالميتا، نشر المعهد الاسباني العربي، مدريد 1983، ص 27.

ـــ وانظر كذلك : — Dr. Pedro Chalmeta : **Précisiones acerca de ʿUmar B. Hafsūn**, pp. 163 - 175.

— **Actas de II las jornadas de cultura arabe e Islamica** (1980) I.H.A.C., Madrid 1980.

الذي وردت فيه إشارة هامة تثير الانتباه حول رسالة أدبية من تأليف أبي عامر بن غرسية وهو اسباني مولّد ومن أصل مسيحي، وقد اعترف هو نفسه بذلك في رسالته؛ وتمثل رسالة ابن غرسية هذه والتي خاطب بها أبا عبد الله بن الحدّاد يعاتبه فيها ويفضل العجم. ومما ورد في هذه الرسالة قول ابن غرسية الذي يبدو أنه كان من أئمة البيان العربي اذ يخاطب ابن الحدّاد بقوله : «أأحسبك أزريت، وبهذا الجيل البجيل ازدريت وماديت أنهم الصهب الشهب. ليسوا بعرب ذوي أينق جرب، أساورة أكاسرة مُجدٌ نُجدٌ بُهم، لا رُعاة شويهات ولا بَهم، شغلوا بالماذيِّ والمُرَّان عن رعي البعران وبجلب العز عن حلب المعز، جبابرة قياصرة...» إلى آخر الشتم التقليدي المعروف عند طائفة الشعوبية بالمشرق، وقد ظهرت رسالة ابن غرسية إبّان حكم مجاهد العامري الصقلي لدانية، والمتوفى سنة 436 هـ /1044 م. لكن هذه الروح الشعوبية لا تعتبر رسالة ابن غرسية هي أولى ثمراتها بل يشير المستشرق الألماني ڤولدزيهر الى ما أورده ابن الابار من إشارة هامة تقول : «ان أحد الصقالبة واسمه حبيب ويتصف بالفهم والتيقظ، ألف زمن هشام الثاني كتابا تعصب فيه لقومه وعنوانه : «الاستظهار والمُغالبة على من أنكر فضل الصقالبة» وقد ذكر ابن بسّام في ذخيرته أنه اطلع على هذا الكتاب وأنه يحتوي على جملة من الأشعار ونوادر أخبارهم»[7]، وهذا ما دفع بالمستشرق الألماني ڤولدزيهر الى اعتبار هذا الكتاب البداية الأدبية الأولى نحو الشعوبية في اسبانيا. وقد تجرأت طائفة الشعوبية هذه، في ظل الحكم الاسلامي بالأندلس الى التغلغل في أعماق صفوف المجتمع وتوصيل صوتها، بل المساهمة في لعب أدوار جدُّ خطيرة في سقوط الخلافة، بمشاركة نشيطة على صعيد البلاط، وكان من ثمار مجهوداتهم السياسية اقتطاع بعض أطراف الخلافة على أعقاب الفتنة الكبرى التي

---

(7) انظر : د. أحمد مختار عبد الفتاح العبادي : **الصقالبة في اسبانيا، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية**. نشر وزارة المعارف العمومية، المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد 1953، ص : 7 — 42.

عصفت بوحدة الأمة الاسلامية وأفرزت على أعقاب نكستها فصائل مُتناحرة عرفت بممالك الطوائف، ومما يؤكد نفوذ هذه الطائفة المغرضة تلك الدهشة التي تأوّه بها البَلَوِي بعد قرنين، من جراء سكوت رجال ذلك العصر عن إساءات الشعوبية وعلى رأسها «الفاسق الزنديق ابن غرسية(8) فيقول «والعجب من أهل ذلك الزمن كيف استقروا على هذه الفتن وأقروا هذا المجترى على هذا الاجتِرا، وما جاء به من الافتِرا، أم كيف أبلعوه رِيقه وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوا فريْقه» فعلا، إن ما أقدم عليه الشعوبيون من تجاوز لا يمكنُ فهمه إلّا إذا نحن وضعنا مُجريات الأحداث داخل إطارها الزمني والمكاني، لقد كان كل ذلك وغيره جائزا، جائزا تحت راية التسامح التي رفرفت على رُبوع الأندلس ووسعت أرجاؤها أبعد ممّا استوقفنا عند هذه الطائفة. فمجال التلاقي والتعايش وَسِع برحمته طوائف أخرى من واجب المقام تجعلنا نقول في حقها بضع كلمات.

4) الصقالبة

اذا كان المجتمع الأندلسي قد وسعت أرجاؤه مختلف الطوائف التي سبق ذكرها فإننا نجده لا ينغلق في وجه مجموعة من الوافدين من مناطق مختلفة كشرقي ألمانيا وإيطاليا وفرنسا، وكل المناطق الممتدة من بحر قزوين الى البحر الادرياتي؛ وقد عُرفت هذه الطائفة بأسماء عدّة فقد أطلق عليها كل من ابن حيّان وابن بسَّام مثلا اسم المجابيب. ونعتهم ابن عذارى باسم العُلوج، وأشار اليهم المقّري بتسمية الخُرس. إلّا أن هذه الطائفة قد عُرفت هي الأخرى بتسمية أكثر شيُوعا هي «الصقالبة» «وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامّة، لأن بعض الجرمان والسكنداويين دأبوا على سبي تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها الى عرب إسبانيا، ولذا أطلق

ـــ عن ابن غرسية انظر العبادي : رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبد الله ابن الحدّاد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب ابتداء من ص 21 ـــ المصدر السابق الذكر..

العرب عليهم اسم الصقالبة»(8). كما عرفوا أيضا فيما بعد، وهذا في بلاط الخلفاء باسم الفتيان. أمّا كيفية وُصول هذا الجنس الى اسبانيا فهذا ما فصّل فيه القول المؤرخ الشهير آدم ميتز إذ جعل لليهود الدور الأساسي في تنشيط تجارة الرقيق بما فيهم الصقالبة، وقد عمد تُجار النخاسة من اليهود الى خصي هذه البضاعة مما جعلها تلقى رواجا واستقبالا في بلاطات الخلفاء، ومما زاد في الاقبال عليها كون وصول هذه الطائفة في أغلبها أطفالا من الجنسين، ولم يستخدموا في المهن الحقيرة بل سرعان ما علا شأنهم نتيجة التربية الممتازة التي تلقوها مما أهَّلهم لاعتلاء مناصب جدّ خطيرة في الدولة، وعلى وجه الخصوص الحراسة الشرفية وقيادة الجيش والعمل كحاشية مقربة، فتقول المراجع إن عدد هؤلاء ما انفك يتزايد الى أن بلغ على عهد عبد الرحمٰن الناصر (13750) خمسين وسبعمائة وثلاثة عشر ألفا من الرجال و6350 من النساء؛ وظل عدد الصقالبة في تزايد مستمر حتى عمد عبد الرحمٰن الناصر مثلا الى تشكيل قوة منهم للحدِّ من نفوذ العناصر القوية في المجتمع الأندلسي كالعرب والمغاربة، الأمر الذي دفع به الى تقليد بعضهم مهاما جدُّ خطيرة كقيادة الجيوش والسير بها تحت إمرة «نجدة» الفتى الصقلبي، لمواجهة إحدى الحملات النصرانية، لكن مثل هذا الصَّنيع قد ترك ما ترك من الآثار الوخيمة. أما في الميادين الأخرى فإننا نجد الصقالبة يبرزون في الحياة الفكرية وذلك بحكم نشأتهم وتربيتهم تربية أرستقراطية فصار من بينهم الأدباء اللامعون والشعراء المبرَّزون وكما لا يخفى علينا ذلك الدور الخطير الذي لعبوه أيام الفتنة الكبرى التي عصفت بقرطبة وبالخلافة فانهم كغيرهم لم يتخلفوا عن اقتطاع نصيبهم من جسد الخلافة المنهوب فكان من نصيبهم مثلا إمارة دَانية التي استقل بها القائد الصقلبي المشهور مُجاهد العامري... وفي ظل هذه الامارات ــ كما سبق وأن اشرنا ــ ازدهرت حركة الشعوبية وبرزت بروزا واضحا مكّنها من توصيل صوتها الى مختلف المنتدءات الفكرية والأدبية وكل ذلك طبعا

(8) انظر : العبادي : **الصقالبة**، ص 8 ــ 9.

كان نتيجة التسامح الذي هيّأ مناخ التلاقي والتلاقح، فجاء المجتمع الأندلسي فريدا من حيث غزارة النتاجات الفكرية، وساخنا من حيث الصراعات السياسية، ومُتسعا لكل الرغبات المكبوتة، ولم ير من حرج يذكر اذا عُين على رأس ادارة مكتبة الحكم المستنصر الشهيرة أديب صقلبي هو «تليد الخَصِي» مثلا، وكل ذلك بفضل مبدإ التسامح الذي وسعت رحمته كل الأجناس بمختلف مشاربها وأطماعها.

5) اليهود

لقد اتسعت الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس بفضل تسامح ورحابة صدر الاسلام ــ كما سبق وأن ذكرنا ــ الى أهل الكتاب من الذميين ويأتي في طليعة هذه الطوائف اليهود الذين يشهد التاريخ الحضاري للأندلس أنهم لم يعرفوا فترة في تاريخهم الطويل أزهى ولا أخصب في جميع النواحي وعلى وجه الخصوص الثقافية منها إلّا في ظل السيادة العربية الاسلامية بأرض الأندلس، ولعل ما يلفت انتباه الدّارس المحقق لمجريات أحداث تاريخ الأندلس من أن يجد أن فئة اليهود هي من بين الفئات التي حظيت بثقة العرب المسلمين وهم يطأون أرض الأندلس بطلائعهم الأولى تحت قيادة طارق بن زياد الزناتي حيث حفظ لنا كتاب «أخبار مجموعة» لمؤلف مجهول يعد ما تركه اليوم من أعرق المصادر وأوثقها صلة بمجريات الفتح للأندلس، هذا النص المتضمن لهذه الشهادة التاريخية البالغة الأهمية من حيث البعد الحضاري والتي تُعبر على أكثر من مغزى يسجل في رصيد الحضارة العربية الاسلامية وذلك في حق اليهود حيث يقول صاحب الأخبار وهو بصدد الحديث عن اجتياح طارق وجنوده جنوب الأندلس في طريقهم الى عاصمة القُوط طُليطلة آنذاك.. فلما بلغوا مدينة إلبيرة (Elvira) وهي المدينة التي احتلت شهرتها وريثتها فيما بعد غرناطة «فحصروا مدينتها فافتتحت فألْفَوا بها يومئذ **يهودا**، وكانوا اذا أَلْفَوْا اليهود ببلدة ضمُّوهم إلى مدينة البلد وتركوا معهم من المسلمين طائفة.

ومضى عُظم الناس ففعلوا ذلك بغرناطة، بمدينة إلبيرة، ولم يفعلوا ذلك بمالقة، مدينة ريَّة، لأنهم لم يجدوا بها يهودا»(9).

فما يلاحظ من هذا النص القديم والهام أن المسلمين وضعوا ثقتهم في اليهود منذ أولى تحركاتهم وذلك لأسباب تاريخية عديدة يعرف اليهود أو المتعاطفون معهم من الدارسين اليوم جلها إن لم يكن كلها. واذا كان هناك من أمة لم تتعرض الى اليهود بالقمع والاضطهاد في التاريخ فهي الأمة الاسلامية. لذلك كان طبيعيا أن يحظى اليهود بين ظهرانيهم بمثل هذه الثقة المبكّرة وهو ما ضمن لهم الاستقرار والرفاهية والرقي العلمي الذي أفرز ما يشبه المساهمة الحضارية لليهود في ظل الحكم الاسلامي في الأندلس، ولعل نظرة خاطفة لمسار أحداث التاريخ تبين لنا أهم الأدوار الحساسة التي كان لهم شرف الاضطلاع بها ودائما من منطلق مبدإ الثقة الأولى التي سنها الأسلاف ليكرّسها خلفهم على أرض الواقع؛ فتؤكد البحوث القديمة والمعاصرة أن طوائف اليهود كانت متواجدة في معظم المدن الأندلسية وكان هذا التواجد ممثلا في الطقوس والشعائر الدينية التي كانوا يمارسونها بحرية مطلقة في بيعاتهم المتعددة، كما كانت حرية اختيارهم للحارات التي هي جزء من نظام معيشتهم المنغلقة هو الطابع السائد في عمارة اليهود وأصبحت مثل هذه التجمعات تعرف في اللغة الاسبانية باسم الخُودرية (Juderia) وهي نسبة مشتقة من التسمية نفسها، والتي يسميها العرب «بحارة اليهود» وهي من الأحياء الهامة التي أصبحت تشكل جزءا مكملا للهرم المعماري في تصميم المدينة الاسلامية؛ فحارة اليهود بطليطلة وقرطبة وغرناطة مثلا هي أشهر من نار على علم كما يقال. وبالاضافة الى ذلك فان مشاركتهم وتأثيرهم في الجو السياسي لم يخف على الدارسين وخاصة في مدن معروفة كغرناطة ورُندة ولِسَّانة اللائي كن يعرفن بصفات دالة؛ كغرناطة اليهود، ورُندة اليهود ولسّانة اليهود نظرا للدور البارز لليهود في هذه المدن.

---

(9) انظر : مؤلف مجهول : **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم،** تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981، ص 22.

أما أهم النشاطات التي كانت تمارسها هذه الطائفة فإنها تتمحور على وجه الخصوص في التجارة بمختلف أنواعها، وباحتراف مهن كالطب والترجمات وقد برزت عدة شخصيات يهودية كان لها دور خطير في مصير السياسة بالأندلس إبّان العديد من الحِقب؛ فهذا حَاشْدَايْ ابن شبرون في القرن العاشر الميلادي يحظى بمنصب وزير في الخلافة الأموية بالاضافة الى كونه طبيب الخليفة الخاص وكذلك أمين الخزانة وسفيرا مفوضا في مفاوضات عبد الرحمن الناصر — الثالث — مع رؤساء الممالك الأخرى، أمّا في القرن الحادي عشر الميلادي فقد برز في إمارة التُّخوم العُليا بسرْقُسْطة أبو الفضل بن حَاشْدَاي كوزير واكب ثلاثة أمراء من بني ذي النون حيث كان بيده الحلّ والربط. أما في غرناطة الزيرية أين اتضح بشكل سافر نفوذ اليهود في الامارة الصنهاجية وأصبح يخطط لمصير عاصمتها غرناطة الاقتصادي والسياسي، ويكفي للتذكير هنا بقصيدة أبو اسحاق الألبيري التي جاءت كرد فعل طبيعي على ما توصلت اليه هذه الهيمنة التي لم تعد خافية على ذي بال؛ فقد استولت كما هو معروف عائلة بني النّغرلة اليهودية على كل شيء(10)، والسبب في ذلك — كما يروم بعض المستشرقين المغرضين تسويغه — يعود الى عدم ثقة زَاوِي بن زيري الصنهاجي في الجنس العربي، وعدم وجود كفاءات من عُصبتِه نظرا لجهالتهم وتخلفهم الحضاري الأمر الذي حتَّم عليه اللجوء الى اليهود ليضطلعوا له بمهام المملكة وهو تخريج واهٍ ومغرض من طرف هؤلاء الدارسين لأن ما ذكر من قبل على سبيل المثال يُفندُ مثل هذه المزاعم، فحظ اليهود من المشاركة كان مرجعه الى تواصل مفعول الثقة الأولى التي رسخها التسامح الاسلامي... وقد لعبت كما هو معروف عائلة بني النغرلة دورا أغضب المسلمين كافة وذلك نتيجة التطاول والطغيان وهو ما دفع بالشاعر أبو اسحاق الألبيري الزاهد الى التصدي الى غطرسة هذه العائلة التي بلغ تجبُّرها أن سمحت لنفسها

---

(10) والى هذا يشير شاعر المعتمد : ابن عمار حين قال :

شقيت بسيفك أمّــة لم تعتمــد   إلّا اليهود وان تسمّت بربــــــرا

(ابن دحية، ص 171)

بالطعن في صميم الدين الاسلامي على لسان الوزير يوسف بن النغرلة؛ وإن كان هذا التصدي التاريخي الذي أعطاه أهمية عميد المستشرقين اميليو غارسيا غُومس في دراسته وتحقيقه المعروف لقصيدة الشاعر والتي يرى فيها موقفا معاديا للسامية وهو تخريج يدخل ضمن منظور عدائي صريح للحضارة العربية الاسلامية الذي دأب المستشرقون عامة على ترسيخه، وذلك بالتركيز المفرط على التصنيفات العِرقية والحرص الدائم في دراساتهم على نعتها بنعوت تتنافى والقيم الاسلامية التي أذابت الشيع والأجناس في بوتقة وحدانية الاسلام.

لكن الوقائع التاريخية تذكر لنا أنه على إثر وفاة الوزير اليهودي الأب اسماعيل نجيب بن النغرلةّ عام 1057 م خلفه ابنه يوسف الذي استطاع أن يحظى بثقة مطلقة من طرف باديس بن حبّوس الزيري خوّلت له نفي الشاعر الألبيري وتأليف كتابه المشهور الذي ردّ عليه ابن حزم[11].. وقد كان لعملية النفي ما حفّز الشاعر على تأليب الأمة الاسلامية الغافلة على الوزير وذلك بقصيدة تاريخية عام 1066 م أودت بحياة الوزير اليهودي وبالتنكيل بثلاثة آلاف يهودي في ليلة واحدة كما تؤكد المصادر وهو ما ترك الدّارسين من المستشرقين يقفون مبهورين أمام قدرة مفعول الشعر في بيئة عهدوا الشعر فيها مجرد نزوة لوصف معشوق أو خمر أو روضة أما أن يتحوّل الى سلاح قاتل ويفتح بابا على مصراعيه لتوعية الناس وحملهم على وضع حد للطاغوت فهذا ما أربك الدارسين وأوقعهم في التساؤل. ويأتي على رأس المتسائلين بشدة غارسيا غومس في كتابه المنشور عام 1940 بغرناطة والذي خص به الألبيري وقصيدته.

فهذه بعض العينات، لكن تبقى الحضارة الأندلسية المرتع الخِصب للشتات من الأقليات اليهودية التي استطاعت أن تنمّي مخزونها القومي بشخصيات تاريخية بقامة الفيلسوف المَيْمُوني مثلا، أو شمويل بن تبون، ويهوذا بن سليمان كوهين (1247 م) وهو من مدينة طليطلة، وشم

---

(11) انظر : ابن حزم الأندلسي : **الردّ على ابن النغرلة اليهودي ورسائل أخرى**. تحقيق د. إحسان عباس، دار العروبة، القاهرة 1960، ص : 7 — 17.

طُوب بن يوسف بن فلغري وقد شرح ليون بن جرشون كتب ابن رشد[12]، أو شعراء كبار كابن سهل الاسرائيلي وغيرهم.

ويكفي اليهود فخرا أن اندماجهم في الوسط الاجتماعي الاسلامي مكنهم فضيلة أصبحت الدراسات الاستشراقية تلهج بها ألا وهي إبرازهم كحليف مشارك في بناء صرح الحضارة الأندلسية وإن كانت مثل هذه الاستنتاجات تعدُّ من صميم الطعن في الحضارة العربية الاسلامية إلّا أنها تبقى مع ذلك شهادة دالة ودامغة لترد على الجاحدين بأنه إذا كان هناك من فضل لليهود يذكر فمرده الى الروح الاسلامية المتسامحة التي فسحت لهم مجال العبادة والعمل في جو محصن بالجهاد والاجتهاد لم يتوفر لهم مثله عبر التاريخ لا في المشرق ولا في المغرب.

---

(12) انظر : محمد المنوني : **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، تطوان، المغرب 1950، ص 101.

الفصل الأول

- الموريسكيون بين الذكرة والواقع
- محاولات التدجين الفاشلة
- حظر اللغة العربية والمؤلفات الموريسكية من قبل محاكم التفتيش.
- متابعات محاكم التفتيش للمخالفين
- امعان السلطات الكنسية في مصادرة اللغة العربية

الموريسكيون بين الذاكرة والواقع

بمثل هذه الخلفية المشرقة كان يحلم الفرد المورسكي، وكان في اعتقاد هذه الأقلية المغلوبة أنه بإمكانها أن تتعايش كما حدث من قبل وإن تغيرت موازين القوى. لكن واقع الحال كان يخبىء لهم عكس هذه التصورات المعسولة والتي ضمنتها لهم المواثيق التي تمت بين الطائفتين على إثر توقيع معاهدة غرناطة الشهيرة(1) لكن واقع هذه المعاهدة ما انفك يتلاشى أمام أمل المورسكيين ليفسح أمامهم مجالا للتصادم والطموحات الجامحة التي يغذيها الحقد الصليبي العلني حيث لم ينفع كل ما بُذل من جهد واجتهاد في سبيل خلق المجتمع المثالي العادل الذي يفرض على الجميع الانصياع الى العدالة واحترام حق الجوار وواجبات التعايش.

لقد أصيبت طائفة المورسكيين بالذهول أمام الواقع الجديد خاصة وأنها الطائفة القليلة من حيث العدّة والعدد، وإذا أردنا أن نبحث في كيان شخصيتها أو إنيتها فانها عبارة عن بقايا شتات لثمانية قرون من الاندماج الكلي فالنسبة المائوية من الدم العربي الافريقي عند أسلافهم وعندهم هي في أقصى تقدير أدنى النسب إن لم نجزم بعدم وجودها

---

(1) انظر نص المعاهدة : المقري : **نفح الطيب**، ج 6 ص 281..

ـــ د. اسعد حُومد : **محنة العرب في الأندلس**، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980، ص 98 ـــ 102.

ـــ عبد الله عنان ـــ نهاية الأندلس، ص 230.

كلية، إنهم مواطنون من طِراز جديد، إنهم أندلسيون لا غير...

من هذا المنطلق فإننا نجد طائفة المورسكيين تُبدي شعورها وانتماءها الى الأرض التي يعيش أفرادها فوقها أكثر من انتمائهم الى أي واقع آخر، إنهم حصيلة عصور طويلة أوجدتهم هناك فأصبح شعورهم بالمواطنة تجاه الأرض أكثر من شعورهم بأي انتماء آخر ولِذا فإن محاولة إبعادهم منها تعني ببساطة محاولة اجتثاث لجذورهم من تربة واقع أوجدهم، كما تعني محاولة إبادة لأنه لا خيار أمامهم سوى التشبث بما ورثوه وما بناه سالفهم وعاقبهم.

وهناك أيضا من المفارقات الواضحة بين الفاتحين المسلمين للأندلس والاسْتِرداديين من النصارى الاسبان ما يعتبر نقاطا جوهرية من حيث المضمون الفعلي المسجل على أرض الواقع، فالمسلمون بفضل التسامح استطاعوا التغلغل في قلوب المستعربين مثلا الى درجة جعلت تعاليم الفاتحين المسلمين تغزو العقول والقلوب قبل غزو الأبدان ولا أدل على ما نقول من شهادات العديد من حراس الكنيسة من أساقفة تقر في مجملها بمدى مفعول التسامح على بقية الذميين ممن فضلوا العيش في كنف المجتمع الاسلامي يؤدون ما عليهم من واجبات ويجنون ما يستحقونه من حقوق في ظل عدالة اجتماعية سامية لا تتعارض قيد شعرة مع تعاليم الدين الاسلامي،الحنيف وربما قبل مواصلة الحديث في هذا المجال الهام يجدر بنا أن نذكّر ولو بحادثة واحدة فيها الدليل الكافي على ما نقول؛ تذكر المصادر التاريخية انه «لما دخل الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية (الأول) الى الأندلس واستولى على إمارتها وسكن دار سلطانها قرطبة، فنظر في أمر الجامع وذهب الى توسيعه وإتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى وسألهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه وأوسع لهم البذل **وفاء بالعهد** الذي صولحوا عليه فأبوا من بيع ما بأيديهم وسألوا أن يباحوا بناء كنائسهم التي هدّمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلّوْا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به. فتم

الأمر على ذلك سنة 168 هـ»(2). مثل هذه المواقف المتسامحة لا تُحصى بعد، وقيمتها الحضارية الكبرى تكمن في كونها كانت مِصداقا لدعوة الحق التي جاء بها الدين، وتكمن أيضا في كونها كانت مرفوقة بالقوة والغلبة التي كان من الممكن أن تخوِّل للمسلمين إحلال العنف والقهر محلّ التسامح، وبالتي هي أحسن. لذا تمكنت القيم الاسلامية من طائفة المولدين ومن طائفة كبيرة من المستعربين وغيرهما من الطوائف الأخرى دون حاجة المسلمين المتغلبين الى استعمال وسائل الاكراه والقهر فاستطاعت بهذه الروح السمحة أن تعرف أرضَهم تعايش ثلاث ديانات لم تتمكن الى حدّ الساعة أي قارّة على وجه الأرض أن تعيد مثل ذلك الانسجام والتآخي وهذا بشهادة أكثر من باحث مُستشرق. وبهذه الخلال تمكنت القيم الاسلامية من احتواء الرعايا الذميين وفسح معها المجال الى اللغة والثقافة العربية كي تفعل مفعولها في تكوين الشخصية الحضارية الجديدة فكانت إسهامات الجميع جدُّ معتبرة في هذه الميادين العلمية والأدبية والتي ولّدت لدى جميع السكان الشعور بوحدة المصير والمُواطنة.

أما في المقابل فإننا نجد الزحف المسيحي الاستردادي لا يملك تقريبا شيئا من الرصيد الانساني الذي كان سائدا في المجتمع الأندلسي الاسلامي، بل ما طبع هذا الزحف هو سِمة الاجتياح السريع غير المتأني الذي لا يسمح بخلق مناخ للتعايش أو تحكيم العدالة الاجتماعية ولا أدل على ما نقول من هذه الشهادة الواردة في «حَوْليات الملك دون فرناندو الرابع» والتي يذكرها المؤرخ الاسباني الكبير كلاوديُو سانتشيت البرنوث (Claudio Sanchez Albornoz) في كتابه «إسبانيا الاسلامية» حيث يذكر قصة المسلم المرحَّل ـ بفتح الحاء ـ باستمرار فيقول هذا المسلم المطارد من الزحف الاستردادي المسيحي مخاطبا الملك دون فرناندو الذي زحف للاستيلاء على جبل طارق في القرن الثالث عشر

(2) سيمون حائك : **صُبح البشكنسية أو الأندلس على عهد الحكم المستنصر والدولة العامرية**، نشر مطابع الكريم الحديثة، بيروت 1976، ص 18.

الميلادي «قال له أحد المسلمين الذين يعيشون بتلك الناحية والذي كان شيخا مُسنا : سيدي الملك، ماذا فعلت أنا حتى تطردني من هنا؟ فقد كان جدّ جدّك الملك دُون فرناندو الرابع حين استولى على اشبيلة قد طردني منها فتوجهت لأعيش بِشَريش وبعدها الملك الفونسو جدّك حين استولى عليها طردني فتوجهت لأعيش بجزيرة طريف وظننت أنها مكانا آمنا الى أن زحف والدك الملك سانتشو (Sancho) فاستولى على جزيرة طريف فطردني وها أنا أعيش الآن بجبل طارق وهو آخر معقل ليس في وسعي أن أتجاوزه لأنك تعلم أن أرض الاسلام تبقى وراء البحر... فأين يمكنني أن أذهب...!؟»[3] فقصة المرحَّل هذه دليل كافٍ على عدم التسامح الذي طبع الزحف المسيحي الاستردادي حيث كان متسرعا في محاولة إلغائه للطرف المعادي، واذا اقتضت الضرورة استعمل وسائل الدمار والابادة كما حدث في القرن الثالث عشر ببلنسية في واقعة ابن الجحّاف وبقية المسلمين[4]. فقد فتح المسيحيون بهذه المعاملة روح العِداء والتباعد الدائم بين الطائفتين الأمر الذي حتّم على طائفة الموركسيين أن يتقوقعوا على أنفسهم وأن يتشبثوا أكثر فأكثر ببقايا قيمهم الروحية والحضارية وسط هذا المعترك الصاخب بالعداوة الذي لا يرحم؛ من هناك كان السر في عدم قبول مبدإ الاندماج والذوبان من طرف الموركسيين وتفضيلهم لأسلوب المقاومة ولو بالاصرار على إظهار المبادىء كمظهر من مظاهر رفض الاندماج وعدم القبول بذوبان شخصيتهم التي يرون فيها أحق وأجدى بأن تتمسك بتلك الأرض التي تحولت الى ميدان صراع بعدما كانت ميدان تعايش وعدالة.

أما بالنسبة للنصارى الاستراديين المتغلبين فإن القضية لم تقف بالنسبة لهم عند حدّ ضمان استتباب الأمن، وإزالة الخطر المحدق، بل تجاوز بهم حدّ الجموح الى خلق جو من عدم الثقة بين كل ما هو غير

---

(3) انظر — Claudio Sanchez Albornoz : **La Espâna Musulmana**, (Según los autores islamistas y cristianos medievales) 2ª ed., 2 tomes, Ed. Buenos Aires (Argentina), 1960, pp. 394 - 395.

(4) انظر Ramón Menendez Pidal : **La España del Cid**

نصراني، وقد انصبت تشككاتهم حتى على أولئك الذين قبلوا بشرط التنصير سواء من المسلمين أو اليهود؛ وعدم الثقة والتشكك هذه نجدها لا تقل خطورة في مستواها عما يكنُّونه لأولئك الموريسكيين المتمسكين بمقومات شخصيتهم فأصبحت ظاهرة النصرانية في حدود المملكة الاسبانية المسيحية هي قضية نسب يشترط فيه أن يُتوارث، وأصبحت مقولة شهيرة متداولة في الأوساط المسيحية المتعصبة «إن مسلما مرتدا الى النصرانية، يعتبر في حقيقة الأمر مسيحي غير نصراني بالفِطرة» أي أنه أكثر خطورة مما كان عليه في الأصل. وقد أشار المؤرخ الفرنسي پيار فيلار Pierre Vilar في كتابه «تاريخ إسبانيا» الصادر بباريس عام 1958 الى هذه الفوارق الجوهرية بين الطائفتين في قوله «إن الموريسكيين يشكلون أقلية **وطنية**»(5) وخاصة في مقاطعة تاج أراغون أو تاج قشْتالة (Castilla)، ويشكلون أقلية اجتماعية متميّزة وسط أغلبية ساحقة تختلف معهم من الناحية التشريعية والسياسية. فمثل هذه المفارقات التي تشير إليها التفاتة المؤرخ پيار فيلار كانت واضحة الأبعاد على وجه الخصوص في مقاطعة كمقاطعة بلنسية (Valencia) التي تعتبر أكثر المناطق تشبثا بالموروث الحضاري الأندلسي العربي الاسلامي وذلك نظرا لدورها التاريخي المعروف ولموقعها الجغرافي المُطِلّ على ديار الاسلام، ونظرا للعدد الكبير من الأهالي الموريسكيين المسجلين في قوائم الرقابة لمحاكم التفتيش (Inquisición) إبّان القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، وكذلك نظرا لظاهرة التجمع الهائل التي جعلتهم يختلفون عن باقي الأقليات الموريسكية الأخرى المبعثرة في المقاطعات والتي كانت عرضة للذوبان والاندماج ممّا جعلها تُعرف باسم «المُدجّنين» (Mudejar)؛ أي الذين رضوا بما سُلط عليهم من المسخ. أمّا مقاطعة بلنسية فإنها عرفت عنادا واستماتة من طرف الموريسكيين بفضل تجمعهم وانغلاقهم على أنفسهم.

من هذا التمايز الواضح كان على المملكة الاسبانية أن تضع في حُسبانها قضية هذه الأقلية غير «المتضامنة» (Insolidaria) مع الجميع؛

(5) انظر Pierre Vilar : **Histoire de l'Espagne.** Paris 1958, p. 31

كما تسميها أغلبية المصادر، بل تعتبرها عنصرا غريبا لا يمتُّ للشعور الجماعي بأية صلة؛ بالاضافة الى هذا العامل الحسَّاس فإن ظاهرة الشعور بالمواطنة والانتماء الجغرافي في مثل تلك العصور المتقدمة بالنسبة لبلد كإسبانيا وأوروبا عامة يعدّ مراهنة ما تزال قيد الدراسة والمراجعة، وخاصة أن تلك الفترة بالنسبة لاسبانيا التي وضعت مقاليد صولجانها بيد أسرة من أصل نمساوي حتمت المزيد من اليقظة والالتفاف حول السلطة وقد زاد من هذا الوضع السياسي الحذر كون التهديدات الخارجية ما تنفك تهدد الوحدة اللينة، بتحركات خطيرة، كالتي ظهرت من فرنسا كما يوضحها خُوان ريقْلا (Juan Regla) في كتابه «المورسكيون» ابتداء من صفحة 10 [6] بالاضافة الى خطر القراصنة المتزايد في وسط البحر الأبيض، وكذلك خطر المغاربة والأتراك العثمانيين الذين يتوجسون منهم خيفة التضامن مع هذه الأقليات قصد إغاثتهم. كل هذه المؤثرات الداخلية والخارجية مهدت السبل للتفكير بجدية في قضية **طرد المورسكيين** من شبه جزيرة إيبيريا. لكن فكرة الجلاء هذه قد جرّت تساؤلات من قبل السلطة حول ما اذا اعتبر مثل هذا الحل نهائيا وناجعا ضد أقلية تعتقد أن وجودها على هذه الأرض وجودا شرعيا يغذيه **حس متزايد بروح وطنية موروثة عبر أجيال. وقد جرّ هذا الى طرح سؤال حول ما اذا استمر خطر هذه الأقلية حتى من وراء البحر، وقد عبر عن هذا الإحساس بالحيرة الاسقف خوان بابتيستا بيريث (Juan Baptista Peréz) في مقولته الشهيرة حين أراد أن يحسم في أمر التخوف بالحل الوسط قائلا : «إنه لأقل خطرا أن يكونوا مسلمين هناك على أن يبقوا هنا باسبانيا»[7]. اذا، فخطورة هذه الأقلية في التصور المسيحي هي ذات حدّين؛ خطورة سياسية تهدد الأمن والوحدة، وخطورة روحية تزعج التطلعات الصليبية التي تهدف الى توحيد العقيدة من خلال الوحدة السياسية وتوسيع رقعة النفوذ المسيحي كي يعم جميع المناطق.**

---

(6) انظر Juan Regla : **Estudios sobre Los Moriscos.** Ed. Ariel, Barcelona, 1974, p. 10.

(7) انظر Boronat y **Barrachina** (Pascual) : **Los Moriscos Españoles y su expulsión**. Ed. Imprenta Francisco Vives y Mora Valencia, 2 vols : 1901, p. 365 vol. 1.

محاولات التدجين الفاشلة

لقد سبقت عملية النفي للموريسكيين العديد من المحاولات الفاشلة من طرف المملكة الاسبانية قصد تدجينهم أو فرض الزامية ادماجهم في وسط اعتبره الموريسكيون غريبا عن مقوماتهم الروحية والعُرفية. لذا كان على التاج الملكي النصراني أن ينتظر زمنا طويلا نسبيا كي يتوج في معظم محاولاته بالفشل الذريع وذلك نتيجة التعسف الذي ساد كل محاولات الدمج أو التدجين وهو ما جعل هوة التباعد بين الطائفتين تزداد عمقا ولعل مرد ذلك أيضا يكمن في حالة الاصرار المستمر من قبل النصارى حتى يصلوا بمحاولاتهم الى مطبٍّ بلا مخرج لا يبقى من خِيار سوى التفكير الجاد في عملية الجلاء الجماعي بطرد الموريسكيين من شبه جزيرة إيبيريا واذا لم يتمّ مثل هذا الخيار على أحسن ما يرام فقد يعوض بعملية إبادة ولو جماعية لهذه الأقليات غير المتضامنة في رأيهم والتي تحولت الى خطر يهدد الأمن الداخلي والخارجي للمملكة. وقد نجحت هذه الخطة بفضل سهر حُراس الصليب على إذكاء نار الحقد في أوساط العامة والخاصة فتمكنوا من إقناع الملك وحاشيته وكذلك قدماء المسيحيين الذين يعتزون بأرُومتهم النصرانية الممعنة في العداوة لأسلاف طائفة الموريسكيين، فكان مسار التمهيد للوصول الى الهدف المنشود قد عرف كثيرا من التراجعات التي تُكلّل بالفشل الذريع وتكون في الوقت ذاته حافزا للدخول في محاولة ثانية وأخيرة ألا وهي إصلاح حال المرتدين الى الديانة النصرانية من طائفة الموريسكيين المسلمين وإحكام الرقابة من حولهم، وتعبئة الرأي العام لمتابعتهم ميدانيا ثم تسليط الاضواء بقوة حول الأقليات المصرة على تقوقعها وتشبثها بمبادئها وقيمها المناهضة للنصارى، وإحصاء ما ينجرّ عن تصرفاتها من أخطار تمس بأمن البلاد والعباد. فكانت نتائج المسح الأولية، وكفرضية مبدئية لحل الأزمة هو الاجماع على ضرورة الدمج والتدجين لهذه الفئة حتى تذوب ويضمحل معها الخطر ويتلاشى مظهرها كأقلية انفصالية معارضة.

إلّا أن هذه المحاولة التي ظلت طوال قرن قيد التجريب نجدها تُتوّج

هي الأخرى بالفشل الذريع مما زاد من حِدة التوتر ولعل مرّد ذلك دائما تعمد استغلال الوسائل غير الناجعة لتطبق تطبيقا تعسفيا جائرا جعل الشعور المورسكي يرفض وبشدة مثل هذا الاحتواء المكره الذي كان في فحواه الأصلي بمثابة الابتلاع والابادة ومن هذا الوعي المورسكي بمدى خطورة ما ينجر عن مثل هذه المحاولات تولدت روح المقاومة الرافضة لأي نوع من أنواع الانسلاخ الأمر الذي دفع بهذه الأقليات المضطهدة الى الولوج في متاهات جعلت الأسقف فرنثيسكا (Francesca) ينعتهم وهم أمام هذه الاختيارات الصعبة بمقولة لها أكثر من مدلول صريح «لقد بلغ المساكين درجة من الحيرة جعلتهم لا يعرفون أيكونون مسلمين أم مسيحيين؟»(8).

أما ما تبقى من تعاليم روحية عند هذه الأقلية فإننا نستطيع أن نقول إنها أُفرغت من محتواها العملي وتحولت الى مجرد طقوس تقليدية باردة لا تتعدى حيز الحركات وذلك نتيجة الرقابة والحصار المستمرين عليهم. وقد زاد من جور المظالم المسلطة على هذه الأقلية كون الشرائع القانونية بالنسبة لأحكام القرن السادس عشر نجدها تجعل من اللغة قيمة وطنية في حد ذاتها. وعلى إثر هذا الاحساس الصارم سجّل أسقف مقاطعة أُورهُويلا (Orihuela) بالجنوب الشرقي من إسبانيا الدكتور استيبان (Estevan) عام 1595 هذا الشرط القاسي والقاسم بين الولاء والتمرد جاعلا من اللغة حدا فاصلا بين الانتماء الى جماعة معينة أو الانسلاخ عنها في قوله : «لما تكون الشعوب مشدودة إلى امبراطورية واحدة فان المغلوبين يتحتم عليهم تعلم لغة أسيادهم»(9).

لقد كانت مثل هذه الصيحة موجهة في أساسها للقضاء على بقايا رواسب اللغة العربية التي ما تزال سارية المفعول بين بعض الأقليات المتشرذمة في الأوساط المسيحية المكثفة، أو منتشرة انتشارا سافرا في مقاطعة بلنسية لما تضمه من نسبة عالية من المورسكيين.

---

(8) انظر Juan Regla : **Los Moriscos**... Vol .1, p. 112

(9) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col 2. p. 629

كما أن هذه الصيحة الناطقة باسم السلطة الروحية في مملكة نصرانية حتى النخاع تقدّس الصليب وتعاليم البابا جاءت بدورها لتُنذر أتباع المملكة في المقاطعات التي ما تزال تعتمد لغات محلية رُومنثية (Romance) غير متجانسة مع لغة التاج القشتالية، كلغة مقاطعة أراغُون وكطلونيا والباسك والحليقية وحتى البلنسية نفسها؛ إلّا أن هدف الصيحة يبقى واضح التحذير في توجهه للأقلية المسلمة، وكانت مثل هذه الغاية أيضا هي إحدى الدوافع لتوطيد القواسم المشتركة للوحدة الداخلية.

إلّا أن مواجهة اللغة العربية ومحاولة إبادتها أوقع محاكم التفتيش في مجابهة واقع معيش فرض عليهم في آخر المطاف الركون الى مفعول اتفاقيات مرحلية، فبعد الثورات العارمة التي شهدتها منطقة بلنسية للتصدي الى متابعات محاكم التفتيش، نجد تاريخ 1528 يُتوَّج بقرار امبراطوري مرن من امضاء شرلكان وذلك في 17 من شهر جويلية مفاده حصيلة تلك المباحثات التي دارت بين شيوخ الموركسيين بمقاطعة بلنسية وممثلي السلطة الملكية لكون هذه المنطقة مأهولة بعدد كثيف من المسلمين واللغة العربية بين ظهرانيهم هي الوسيلة الوحيدة التي يعرفونها كأداة للتخاطب فيما بينهم، ومع جيرانهم؛ فإن فرض التخلي عنها في مثل تلك الظروف يعد أمرا مخالفا للواقع أو مستحيلا لأن تعلم لغة أخرى يقتضي ضرورة مهلة كافية، من هناك كانت مطالب الجماعة الموركسية في المفاوضات هي فُسحة زمنية تقدر بأربعين سنة يتركون بعدها اللغة العربية ويتقمصون لغة التاج. لكن المفاوضين من محاكم التفتيش رفضوا هذا المطلب وقلصوه الى عشر سنوات كحد أقصى يسمح للموركسيين في بحرها من استعمال اللغة العربية والانكباب الجادّ على تعلم الرُومنثية البلنسية أو اللغة القشتالية لغة التّاج»[10] أو الأعجمية (El Aljamiada) التي ستصبح فيما بعد لغة الموركسيين، وهي عربية تكتب وتنطق بحسب مخارج الحروف اللاتينية. إلّا أننا نجد الموركسيين لا يلتزمون بهذا

---

(10) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col 1, p. 224

الاتفاق وبعد ثمانين عاما على امضاء الاتفاقية نجد المصادر التاريخية، والدارسين المتخصصين في ميدان «الأعجميات» أمثال Boronat بروناط، في كتابه «موريسكيو اسبانيا ونفيهم» وكذلك (Cardaillac) «كاردياك» وغيرهم يوقفوننا على رصيد هائل من التراث الموريسكي الذي نشط في مجالات فكرية متعددة وعلى وجه الخصوص الديني منها والأدبي.

حظر اللغة العربية والمؤلفات الموريسكية من قبل محاكم التفتيش

إذا أردنا معالجة قضية اللغة العربية كأداة من مقومات الشخصية العربية الاسلامية بالنسبة للأقلية الموريسكية فإنها تجعلنا نقرُّ بأنها كانت واسطة الصراع الفاصل بين الطائفتين المتنازعتين وهذا بالرغم من تقلصها وانحسارها وغربتها التي لم تُبق منها سوى شبح مبهم إلّا أن هذا المتبقى من وهج اللغة العربية ظل يقض باستمرار مضاجع زبانية محاكم التفتيش الأوصياء على مصائر البشر، علما بأن العربية المتبقاة من بعد الانكسار الطويل الذي تجاوز القرن والنصف هي عبارة على عامية سفسافة تتجلى في الأوردة والأدعية الجوفاء، حيث لا تؤهل المتحدث بها الى الخوض في محتوى القرآن الكريم والسنة النبوية مثلا، وهذا بشهادة بعض الفقهاء الموريسكيين البلنسيين حيث يعترف أحدهم قائلا : «انه يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية لكن ما يفهمه من قراءته للقرآن هو قليل جدا إن لم يكن لا شيء»(11). إلّا أن مثل هذا الحكم لا يمنع من وُجود بعض الفقهاء المجتهدين بحكم تمسكهم بالقيم الاسلامية من المداومة على حفظ القرآن الكريم والمواظبة على تحفيظه في جو تسوده المضايقة والمتابعة والمراقبة والتجسس وهذا ما حدا بالباحث المؤرخ «برونناط» مثلا الى أن يذكر هذا ويقرّ بأن الأقلية الموريسكية في مناطق أخرى كأراغون مثلا قد فقدت انتماءها اللغوي واضطرت الى أن تبعث بأبنائها الى منطقة بلنسية لتعلم العربية واستعمالها.

---

(11) انظر Julio Caro Baroja : **Los Moriscos del Reino de Granada**, Ed. ISIMO, Madrid 1976, p. 158.

إلّا أن قضية العامية أو لغة الاستعمال اليومي التي كانت متداولة بين الموركسيين وخاصة في نواحي بلنسية الاكثر محافظة فإنها جعلت الدّارسين لا يصلون في اشكاليتها الى فصل مقنع قصد تحديد نوعيتها، إلّا أن بعض الاشارات الأدبية العابرة كتلك التي أوردها الأديب المسرحي الاسباني الشهير لوبي دي ڤيقا (Lope De Vega) «1562 — 1635» في ملهاته «الفاقة المرغوبة» نجده في أحد فصولها يعمد إلى تصوير أحد أبطاله الاسبانيين المدعو ليونيلدو (Lionildo) وهو يتجول به في شمال افريقيا ويلهج بلغة عربية بلنسية في أوساط سكان المغرب العربي وفي أثناء الحديث نجده يفتح حوارا بين بطله وبين أحد السكان المحليين نترجمه كالتالي :

«.. قال أيضا : أين تعلّمت لغتي هذه؟

تساءل أحد المواطنين.

أيّ مسيحي يسكن بجوار موركسي مقاطعة بلنسية يتعلّمها مثلي : أجاب ليُونيلدو»(12).

لكن مثل هذا الشاهد الوحيد لا يمكن أن يقوم كحجة تبرهن على أن اللغة المستعملة بين الموركسيين في مقاطعة بلنسية آنذاك هي شبيهة الى حدّ ما بما كان مستعملا من لغة حوار بين سكان شمال افريقيا، إلّا أن ما يمكن الاقرار بصحته هو أن اللغة العربية أو العامية منها المنبثقة عن الفصحى فان مدى صفائها وتكدرها مرده الى المكان والزمان الذي تنشأ وتنتشر فيه، فالمعلوم أن أقليات الموركسيين كانوا موزعين بحسب الزحف المسيحي الاستردادي الذي شملهم فمثلا نجد أولئك الذين شملهم الحصار الكلي راحوا تدريجيا يندمجون برغم الحفاظ والمقاومة فتلاشت وحدتهم اللغوية لعدم قدرتها على مقاومة التشرذم الذي أطاح بتراص وحدتهم فلم نتمكّن اذا من التصدي الى حتمية الأمر الواقع فكان أن تراجعت أو تقهقرت أمام الغلبة وتقلصت لغتها تقلّصا

(12) انظر Lope de Vega :.**Obras Completas**, Ed.Rivadeneyra,Tomo IV, p. 159

ملحوظا في المجال العملي لتحتمي بالضمير وتختزن في الوجدان كما حصل ذلك في مناطق الشمال المأهولة بالمسيحية الكاسحة في حين أن المناطق التي ظلت محافظة على كينونتها وصيرورتها العربية الاسلامية وعلى المقوم الفعال الذي يتجسد في الأكثرية المتراصة الوحدة كمنطقة بلنسية كما أشرنا لذلك سابقا، وبعض المناطق الأخرى التي ظلت بمعزل عن الحصار نتيجة تحصنها في بعض الجيوب المعزولة متخذة من الجبال والمناطق المهجورة النائية ملجأ لها فقد حافظت هي الأخرى على لغتها كما تقر بذلك بعض محاضر المفاوضات التي كانت تدور من حين لآخر بين شهود محاكم التفتيش ورؤساء الجماعة، علما أن مصطلح «الجماعة» ظل متداولا في مثل هذه المحاضر طيلة أعوام المواجهة لأن الأقليات الموركسية يظهر أنها كانت تخضع الى نظام الشُورى الذي يعتمد على الجماعة في كل مفاوضاتها كناطق رسمي باسم مصيرهم ومستقبلهم. فقد ورد في محضر عام 1595؛ أي مشارف القرن السادس عشر الميلادي؛ وهو تاريخ جدّ متأخر بالنسبة للحضور الموركسي على أرض المقاومة حيث يقول المحضر : «... معروف وثابت أن هناك مشكلة عويصة لتلقين هؤلاء الموركسيين لأنهم حتى وان لُقنوا من طرف أساتذة كبار سيظلون يجهلون لغتنا لأن بعضهم يعيش في مناطق وعرة وجبلية وخطيرة ولا وجود لمسيحي بين ظهرانيهم»(13).

ويضيف هذا المحضر مفصلا الوضع اللغوي مشيرا الى أن «كثيرا من الرجال والنساء لا يفقهون اللغة البلنسية ولا القشتالية وذلك نتيجة التعامل القليل والتبادل التجاري الضيق الذي لا يخرج عن حيز دوائرهم المعروفة»... بل تجاوز الحد بأقلية الموركسيين القاطنة بمقاطعة بلنسية مثلا أن بلغت درجة من الوعي بخطورة الموقف عمّق إصرارهم وتماديهم في تفضيل الأجواء المنغلقة حتى لا يكونوا عرضة لأي أثر مهدد لوحدتهم وتراصهم، فكانت اللغة في هذا السياق ذريعتهم وشافعهم في التواصل وكان بواسطتها يتم الفرز الصحيح، وبها كذلك تتم الثقة لابرام

---

(13) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col 1, p. 227

التبادل وخلق أجواء للتعامل النقي، فمثل هذا الاحساس الواعي والمدرك حبذ إليهم الانغلاق لأن فيه سلامتهم وأمنهم وطمأنينة مستقبلهم وبه قاوموا منطلق الاندماج الذي كان الطرف المضايق لوجودهم يصر على النفاذ اليهم من خلال تنازلهم على لغتهم واستبدالها بلغة الأعداء. وقد أدّى مثل هذا الحافز بأحد زَبانية محاكم التفتيش ألا وهو سيباستيان دِي انثيناس (Sébastian De Encinas) الرّاهب بدير مونسيرّاط (Monserrat) عام 1602؛ بأن يسجل في أحد محاضر التفتيش هذه العبارات الدالة وهو يرى مفعول ما يصفه مجسدا بين ظهراني الجماعة المورسكية المتضامنة فيما بينها والمتراصة الصفوف، والممعنة بعناد شديد في التعامل بلغتها العربية وسط محيط غير متجانس مع كيانهم وغير مرتاح البتة لمثل ما يجري من تصرفات فيقول الراهب بلهجة التأسي الحانقة «... إنهم ــ المورسكيين ــ بلذة وإشهار يتحدثون العربية»(14)؛ كما لاحظ الأسقف Estevan استيفان بدوره مدى تعفف النساء المورسكيات على وجه الخصوص من استعمال اللغة الأجنبية، ومثل هذه التجاوزات حسب إجماع محاكم التفتيش أصبحت تستدعي الاسراع باتخاذ التدابير الصارمة لردع مثل هذا التحدي السافر من جانب المورسكيين الممعنين في عدم قبول مبدإ الاندماج ورفضه جُملة وتفصيلا.

وقد سجلت محاضر محاكم التفتيش عيّنات دالّة لمثل هذا التحدي الصارخ والصريح من قبل بعض المورسكيين الذين اتصفوا بروح المقاومة وقوة العقيدة في مجابهة تعسّف طاغوت محاكم التفتيش، فقد تجلّى مثل هذا التحدّي مثلا فيما أقدم عليه المجاهد المورسكي ميڤال موسى (Miguel Muza) كما تسميه محاضر التفتيش وهو أحد المجاورين بقرية «تشيفا» (Chiva) والذي أصدرت في حقه محاكم التفتيش قرارا بالاعدام عام 1573؛ فكان هذا الفقيه الجليل كما تصفه محاضر محاكم التفتيش: «لا يتحدث ولا يكتب إلّا باللغة العربية... ويواصل المحضر مخبرا أن

(14) انظر Juan Regla **Los Moriscos**, Vol ,I, p. 114

هذا الرجل كان له أبناء فُرِض عليهم كغيرهم الالتحاق الاجباري بالمدارس المسيحية لتعلم اللغة القشتالية والمعاملات وكذلك الحضور للصلوات بالكنيسة لكنه ما انفك أن أخرجهم من تلك المدارس وانكب على تلقينهم في بيته العربية والقرآن... وبالاضافة الى هذا تقول المحاضر إنه كان يتجمع في بيته العديد من الرجال والشباب ليتلو عليهم كتابا كان يملكه باللغة العربية يحتوي على موضوع الجدل الذي دار بين المسيح ومحمد ﷺ أين يُظهر فيه الاسلام على المسيحية» (15)

وقد كان لتأثير هذه الأقليات المورسكية أثرها الواضح في بعض المقاطعات المسيحية فنجد على سبيل المثال الأثر الملموس للظاهرة اللغوية في المقاطعة الكطلانية مجسدا في تلك الثروة اللغوية التي تزخر بها اللغة الكطلانية والتي يعود أصلها أو أصل اشتقاقها الى اللغة العربية؛ وقد ذكر الباحث الفرنسي كاردياك (Cardaillac) أن من أسباب توغل العربية في الأوساط المسيحية على الرغم من مكافحتها ومحاولة استئصالها هو دافع تأمين الذات من عدو متربص ومجاور فأدّى مثل هذا الحافز الى التشجيع على تعلم العربية قصد الاطلاع أكثر على أسرار العدو وتحرشاته، بالاضافة الى ذلك هناك دافع أمني آخر يتمثل في تفشي حِرفة الجوسسة التي كانت تشجعها الكنيسة والمملكة على وجه الخصوص (16): إن من يعود اليوم الى المحاضر الكنسية يجدها قد حفظت لنا العديد من الوثائق التي تدل على تواصل استعمال اللغة العربية في الأوساط المورسكية إلى تاريخ متأخر وخاصة من طرف الفقهاء بمنطقة بلنسية فيقول الأسقف فيڤيرا (Figuera) في احدى مذكراته متحدثا عن كتب المورسكيين عموما بأنها كانت «تحتوي على عقود الزواج ، والبيع وعلى الأسماء العربية» (17) كما عدَّدَ كل من «بروناط»، و«كارديتك» مجموعة من الفقهاء المورسكيين الذين كانت مهمتهم اليومية موقوفة على التدريس بالعربية وليس فقط في الميادين

---

(15) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col 1, p. 362

(16) انظر Louis Cardaillac : **Le passage des Morisques en Languedoc**, Montpellier 1970, (pp. 34-49).

(17) انظر Baroja : **Los Moriscos... p. 171**

الدينية بل تجاوزت الى تعليم المواد العلمية كالطب وعلوم أخرى وهو ما أشار اليه بتفصيل ضاف خ. فونيل قرين (J. Fonnel-Guerin) في كتابه «الكتاب والحضارة المكتوبة في أوساط الجماعة المورسكية الأراغونية» الصادر في باريس عام 1979. وقد أدرك رجال الكنيسة ومحاكم التفتيش خطورة مفعول اللغة في معتقد الفرد المورسكي حيث لمسوا حتى من المرتدين الى المسيحية أنهم لم يتمكنوا من التخلص من مفعول العربية فحتى في تعاملهم مع المعتقد الجديد راحوا يتدرجون الى جوهره بواسطة العربية وهو ما تسبب في عرقلة نفاذهم الى صميم الاعتقاد الجديد بل تسبب في معضلة التشكك في النية مما جعل الاطمئنان الى صدق إيمانهم يظل مشوبا بالحذر الشديد ويضعهم دائما موضع الشبهات والتشكك الأمر الذي وقف عائقا في طريق الاكراه على التمسيح.

فبالنسبة لرجال الكنيسة نستطيع أن نجزم بأنهم أدركوا ادراكا مبكرا جدلية ارتباط اللغة العربية بالإسلام كعقيدة وتشكلهما في ثنائية ذات علاقة تبادلية يصعب الفصل بينهما مما جعل المجلس الملكي عام 1595 يقرر في حق المتنصرين هذا القرار الواضح الأبعاد والهادف الى استئصال اللغة العربية فيقول : «ان الذين اعتنقوا المسيحية عليهم أن يتخلوا على اللغة العربية اجباريا» ويرى الدكتور استيفان «أن اللغة العربية تقف كحاجز منيع أمام ارتدادهم الى النصرانية»(18).

إنه كما يلاحظ شعور طبيعي بالخوف من فعالية هذا المجهول وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بلغة عدوٍّ؛ لقد بات الأمر بالنسبة للنصارى في منتهى الخطورة لأنه بالامكان أن يدبر بها أمر ما قد يهدد استقرار المملكة، وقد حذر من مثل هذا المطبّ أو المنزلق عالمهم المتعصب لضرورة الوحدة الدكتور استيفان الذي ما فتىء يكرر : «العربية! حذار إنها فرصة سانحة لهم كي يدبروا بواسطتها ضدنا أخطارا جساما»(19).

---

(18) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col II, p. 651

(19) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col II, p. 652

وقريب من هذا التحذير المشوب بالحيرة ما زاد في التأكيد عليه في مطلع القرن السابع عشر الميلادي أسقف سيڤوربي (Segorbe)، دون فيليثيانو دِي فيڤيرا(Don Feliciano de Figuera) فقد دعا وبصريح العبارة «أن لا تبقى الجماعة الموريسكية متكتلة، بل يجب أن يتم ذلك ان وجب بمحضر الحاكم المسيحي، كما يجب أن تدار المشاورات فيما بينهم بلغتنا وليس بالعربية»[20].

وكما هو معلوم وجلي في أي محاولة من أجل اضطهاد أو استئصال لغة تتحول الى وسيلة مقاومة بالنسبة لأي أقلية، فإن أول ما يفكر في ضربه هو منع تعلمها في المدارس أو الكتاتيب وهو الأمر الذي تمت المصادقة عليه بالاجماع في المجلس الملكي لعام 1565[21] حيث نص القرار على المنع البات لكل طفل متنصّر أن يتعلم إلّا باللغة القشتالية أو البلنسية.

متابعات محاكم التفتيش للمخالفين

بعد هذه القرارات والاجراءات المتتالية للتقليص من مفعول اللغة وتقوقع الأقليات الموريسكية نجد السلطة توجه عناية خاصة لرجال الدين من هذه الأقليات ويصبح الفقهاء محل شبهة ومتابعة رسمية ومستمرة، وأصبحت قرارات محاكم التفتيش حاسمة مع الاباء الذين توجه اليهم تهمة التقصير مثلا في حق أبنائهم كعدم ارسالهم الى المدارس المسيحية، أو محاولة تلقينهم العربية والتعاليم الاسلامية خفية، وقد زاد المجمع البلنسي الحاكم عام 1608 من اتخاذ التدابير الأكثر جدية وصرامة فتجاوز القرار الملكي الآنف الذكر بمضمون الصياغة التالية والقائلة : «حتى يتسنى لهؤلاء الموريسكيين من تعلم لغتنا ونسيان وترك لغتهم فإننا نطلب من جلالته الموافقة على إرسال مدرّسين من المسيحيين القدامى إلى كل الأماكن الآهلة بطوائف الموريسكيين غصبا عنهم حتى يقوموا على تعليم أبنائهم القراءة والكتابة وكذلك تعليم نسائهم وبناتهم الحرث والخياطة...»[22].

(20) انظر Boronat : **Los Moriscos españoles**, col II, p. 537

(21) انظر Juan Regla : **Los moriscos**, col I, p. 143

(22) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col II, p. 537

وبموجب هذا القرار الاستثنائي والاضافي أصبحت كل المكتوبات باللغة العربية كفيلة بأن تدين صاحبها بأقصى التهم حتى ولو كانت هذه الوثائق نسخا من عقود الزواج، أو البيع أو الملكية أو التوثيق أو ما شاكل ذلك. الأمر الذي دفع بالأسقف فيقيرا (Figuera) أن يطلب من الملك «بأن ينشر في أوساط المورسكيين الكتب باللغة القشتالية أو البلنسية حسب نصيحته للملك فيليب الثاني، وأن ينتزع منهم كل الكتب العربية ومختلف الوثائق حتى ولو كانت كتبا علمية أو غيرها»[23]، كما دعم مثل هذه النصيحة بتزكية موجهة الى الملك أيضا الراهب نيكولاس دلريُّو (Nicolas Del Río) في رسالة ضافية عام 1606.

من هناك ظهر ما يشبه التنافس بين رجالات الكنيسة من حيث النصائح والاجتهادات المتتالية التي أصبح يعج بها ديوان الملك، فإذا كان على سبيل المثال الراهب نيكولاس (Nicolas) يدعو الى حرق وإتلاف كل ما هو مكتوب بالعربية فان رفيقه الأسقف فيقيرا (Figuera) أعلن وبصوت عال أنه «يجب معاقبة كل من يكتب بالعربية»[24]؛ لكن من حول هذه المعركة الدائرة حول مفعول اللغة العربية نجد الرهان الرابح بحسب تصور السلطة الروحية يوضع على كاهل الأطفال المورسكيين، اذ راهنوا وبشدة على إيجاد السبيل الناجع لاخراجهم من ورطة التشبث بلغة آبائهم، محاولين ضرب أمل الآباء بالأبناء علهم في آخر المطاف يستسلمون لقدر فلذات أكبادهم؛ فكان القرار في هذا الشأن حاسما وصريحا للغاية، حيث خولت السلطة الملكية للأسقف دون خورخي دي أوستريا (Don Jorge De Austria) عام 1566 أن يملي فحواه حسب رغبته فكان الأمر الصادر للمورسكيين «وخاصة الاباء والأمهات بأن يعملوا على تلقين أبنائهم منذ الصغر اللغة البلنسية حتى لا يجدوا صعوبة في نسيان اللغة العربية عند الكِبَر»[25].

(23) انظر Juan Regla : **Los Moriscos**, col I, p. 145

(24) انظر Juan Regla : **Los Moriscos**, col I, p. 145

(25) انظر Juan Regla : **Los Moriscos**, col I, p. 145

لكن مثل هذا الرهان المشلول الذي أيدته السلطة الملكية بوحي من السلطة الروحية التي تتصدر محاكم التفتيش نجده لم يحقق بدوره الأهداف المنشودة ويدل على صدق الفشل الذريع الذي منيت به مثل هذه المحاولة اليائسة القرار الملكي المسجل في رسالة الملك فيليب الثالث والموجهة الى عامله ماركيز مقاطعة بلنسية وذلك عام **1608** اذ تقول : «يجب أن يوضع في الحسبان بأن فرض خلع الملابس الاسلامية وعدم التحدث باللغة العربية يحدُّ من القرارات التي تمس الموريسكيين في صميم كرامتهم الأمر الذي عرقل إقدامهم على الارتداد الى ديانتنا»[26]. وفي التاريخ نفسه أعلنت الجمعية الناطقة باسم مقاطعة بلنسية بما يقارب فحوى القرار الملكي حيث زادت من التأكيد على صعوبة فرض خلع الملابس ذات الطابع المغربي الاسلامي على هذه الأقلية لأنها تشكل في حدّ ذاتها أكثر من مغزى بالنسبة إليهم فما بالك باللغة التي تعتبر إحدى دعائم مقومات شخصيتهم.

داخل هذا الاطار المتباين شكلا ومضمونا : نجد العوائق التي جابهت السلطات الملكية والروحية تأخذ صبغة الموضوعية مما جعلها من الصعوبة بمكان لايجاد الحل المناسب لها وخاصة أن الأقليات الموريسكية راح اصرارها يزداد يوما بعد يوم على عدم القبول بالتبعية والانسلاخ عن مقوماتها : وقد دفع مثل هذا الاصرار ببعض الموريسكيين المجاهدين والمتشبثين بعقيدتهم ولغتهم أن يعمل على إثبات التهمة من حوله ويرغم محاكم التفتيش على اصدار أمر الحرق في حقه؛ وهناك في ساحة الاعدام يزيد من نكايته وتحدّيه لهذه المحاكم المتعصّبة؛ فما إن تثبت إدانة وتقدم له التهمة المصادقة عليها بخط يده يتلقفها ويمضيها باللغة العربية أمام الملإ مما يُوقد صدور الرهبان غيظا وحقدا ويجنُّ جنونهم فيسارعون بالتعجيل بإحراقه[27].

فمثل هذا التحدّي والتمادي لا يمكن فهمه إلا بمنطق واحد هو أن العنف يولد العنف، والتعصب يُجَابَهُ بمثله وان دل كل هذا على شيء

---

(26) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col II, p. 140

(27) انظر Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col II, p. 135

فإنما يدل على غياب التسامح والمرونة السياسية والدينية لاستقطاب الأهداف باستعمال الوسائل المعقولة وهو ما عجزت عن تحقيقه محاكم التفتيش التي يحز في نفوس طاقمها أن تعترف أن اللغة العربية المستهدفة مثلا ظلت واستمرت في مقاطعة بلنسية بدون انقطاع الى غاية فجر الجلاء المعروف وهو حلّ العاجزين عن التمام كما يقال.

إمعان السلطات الكنسية في مصادرة العربية

بموجب الاجراءات المتشددة السالفة الذكر أصبحت اللغة العربية والكتابة بها وكلّ ما يمت لهما بصلة محل شبهة وإدانة في مفهوم الأعراف المسيحية لذا اتخذ من التدابير لمكافحتها ما يشبه الحملة الاعلانية والدعائية والوقائية من أجل المضي في مطاردتهما بشكل مستمر مما جعل أمر هذه الأقلية يتحول الى ما يشبه الحالات التي جابهت الدعوة الاسلامية في بداية ظهورها حيث أحيطت بحشد من الجاهلين جعل الاقدام على مبدإ الشهادة بمثابة التضحية في سبيل العقيدة.

من هناك دخل الكتاب العربي مجابهة علنية مع قرارات محاكم التفتيش واستعيد الى الذاكرة ما يشبه العهد الأول من المضايقة التي شنها الكاردينال الصليبي الشهير خيمينيث دي ثيسنيروس (Jimenez Decisneros) عام 1500 على أعقاب سقوط غرناطة حيث تسجل لنا الوثائق الرسمية إقدامه الحاقد والشنيع على ارتكاب فعلته التاريخية المعروفة «اذ أقدم على حرق الكتب الاسلامية في الساحة العامة وبلغ عدد مجلداتها آنذاك خمسة آلاف دون وعي منه لقيمتها المعنوية أو الجمالية ذات الثمن الغالي، وكذلك فعلت محاكم التفتيش بمقاطعة أراغون التي أقدمت على حرق آلاف المصاحف ومختلف الكتب الأخرى في الساحة العامة أيضا»[28]. وقد تجاوزت قرارات محاكم التفتيش مع الموريسكيين الأواخر حدّ مصادرة كل ما هو مكتوب باللغة العربية الى «كل ما يكتب حول الديانة الاسلامية سواء بالحرف العربي أو الرومنشي

(28) انظر سجل وثائق محاكم التفتيش مع الموريسكيين المحفوظ بأرشيف بلد الوليد (Valladolid) لسنة 1555، ص 25.

(الأَلْخميَادُو) أو أي لغة عامية أخرى» لكن تبقى رغم كل هذه المجهودات الاضطهادية محاولة القضاء على أثر الاسلام والعربية في شبه جزيرة ايبيريا بمثابة السراب الذي يحسبه الظمآن ماء ؛ لأن الوثائق الرسمية تثبت عكس ما رغبت محاكم التفتيش بلوغه من أهداف أقصاها القضاء المبرم على أثر الاسلام والعربية.

فهناك العديد من التواريخ المتفاوتة التي تذكّر من حين لآخر بإصرار الكتابات العربية على التداول بين الأقليات الموريسكية ففي التاسع من شهر يناير عام 1579 مثلا نجدها تذكر بأحداث تؤكد تداول الكتاب العربي واستعمال اللغة العربية في الحوار بين المورسكيين، وحتى بين المرتدين والمدجّنين منهم في مقاطعات شمالية مُغرقة في الأوساط المسيحية الغالبة كأراغون؛ فقد أبلغت السلطات الكنسية بتلك المقاطعة قداسة مفتش محاكم التفتيش العام بأن مجهوداتهم يجب أن تنصبَّ على متابعة الفقهاء على وجه الخصوص وإصدار الأوامر بالقبض عليهم أينما وُجدوا دون أن تنسى إيقاف رؤساء الجماعات من عِلية المورسكيين فيقول البيان «إننا نلفت جنابكم الموقّر الى ما تمكّنا من العثور عليه بين هؤلاء المرتدّين من الفِرق المحمدية من الكتب العربية التي في حوزتهم قصد التعلّم بها وكذلك إلى الروابط والاتصالات التي تتم فيما بينهم وخاصة مع سكان الجزائر، وللوقاية من هذه الأخطار نرى من الضروري إصدار الأمر بإلقاء القبض على الفقهاء والرؤساء منهم»[29]. لذا أصدرت السلطات الكنسية قرارا يعاقب كل من يملك كتابا باللغة العربية أو يتعامل بها، ومثل هذه التهمة أصبحت كفيلة بجر صاحبها الى حبل مشانق محاكم التفتيش أو رمي المتهم في مجمرة ليحرق حيا كما يفعلون[30] وقد أصدرت السلطات الكنسية بمقاطعة أراغُون في 15 فبراير عام 1593 قرارا تدعو فيه كافة المرتدين والمدجنين من المورسكيين اذا أرادوا التماس العفو من قداسة الكنيسة أن يخرجوا كل ما يملكونه من الكتب

(29) انظر الأرشيف التاريخي الوطني، بلد الوليد، ص 26.

(30) انظر Louis Cardaillac : **Morisques et Chrétiens, un affrontement polémique (1492-1640)**, Paris Klincksiek 1977, p. 56

العربية حتى تُغْفَر خطاياهم وتزول من حولهم شبهة الاتهام والمتابعة(31).

وبموجب هذا النداء الرسمي المصحوب بالوعد والوعيد تقدم العديد من المتنصرين غصبا عن إرادتهم الى الحفل المقدس بما يملكون من كتب تعد محظورة وذلك قصد جر المترددين من الموركسيين، لكن البعض الآخر من الموريسكيين أصرَّ على الاحتفاظ بها وإخفائها.

ويبقى مع كل ذلك أن مثل هذه القرارات المُجحفة في حق الانسان والانسانية كانت تصدر باسم قداسة الكنيسة حامية حِمَى الدين والأخلاق وكانت تمارس وتنفّذ بزبانية أشربت قلوبهم على حب الانتقام من كل ما يمتّ للاسلام بصلة.

لكن في حقيقة الأمر تبقى الاجراءات والقرارات المتتالية الصدور بمثابة التمويه لأن واقعية الأحداث تثبت ميدانيا أن المطاردة والتنكيل والابادة الجماعية كانت تمارس في السر والعلانية ضد هذه الأقليات المسلمة وغيرها من الأقليات الأخرى. وما القرارات والمراسيم إلّا لجعل مثل هذه الجرائم البشعة تكتسي صبغة الشرعية المطلقة، ولكن في آخر الأمر أجمعت المصادر على أنها من قبيل التضليل الفاضح لأن واقع الحال يسجل عكس ما تتظاهر به القرارات.

(31) انظر Louis Cardaillac : **Morisques et Chrétiens, un affrontement polémique** (1492-1640), Paris Klincksiek 1977, p. 27

الفصل الثاني

- مأساة الموريسكيين على وتر الشعر الملحمي الإسباني
- الملاحم الشعرية كشاهد عيان على مأساة الترحيل
- مجريات أحداث الترحيل الإجباري حسب رصد الشعر الملحمي لها.

مأساة الموريسكيين على وتر الشعر الملحمي الأسباني

لقد أنهى الملكان الكاثوليكيان مهمتهما العسكرية متوجة بأخذهم لآخر معقل للمسلمين بأرض الأندلس، فسلمت لهما مفاتيح قصر الحمراء من طرف أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة المنكود الحظ رفقة قائده ابن كُماشة وذلك ليلا تحت ستار الظلام والصمت خوفا من انفلات رعيته وتحويلهم الى غرناطة مقبرة لهم ولأعدائهم. فكان تاريخ السابع من يناير عام 1492 هو الذي شهد ليلة الزّفاف المشؤوم، وإن كانت معظم المصادر تجمع على التاريخ المعروف بالثاني (2) من شهر يناير عام 1492، لكن أصح الوثائق وأصدقها تؤكد التاريخ المذكور سلفا بناء على مستجدات في ميدان البحث تثبت ذلك(1). هكذا غنم التاج الموحد أعظم مدينة على المستوى الأوروبي آنذاك بشهادة الباحثين الأوروبيين أمثال غارسيا غومس، وراشيل آريي وغيرهم، وقد وقعا مع المهزومين معاهدة السلام بين قوسين لكنه سلام الغالب المرتقب للحظة الثأر، فكان هذا الحدث بالنسبة للملكين وللكنيسة الحليف المباشر

---

(1) انظر — M. Carmen Pescador del Hoyo «Còmo fue de verdad la toma de Granada» a la luz de un documento inédito. Revista Al-Andalus n° 20, 1955, pp. 283-344;

وانظر كذلك — Rachel Arié : **Algunas reflexiones sobre el Reino Naṣri de Granada en el siglo XV**, B.A.E.O. XXI, 1985, pp. 157-179.

بمثابة انتصار عسكري وسياسي لا غير أما الانتصار الأكبر فهو يكمن في مخيلة كاردينالهم الشرير ثيزنيروس (Cisneros) الذي ظل ساهرا على التخطيط له والاشراف بنفسه على تنفيذه.

فالانتصار الأشمل والأعظم بالنسبة للملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، وكذلك لثيزنيروس يجب أن يكون انتصارا دينيا، لأن رغبة هذه الأطراف تكمن في خلق الوحدة الروحية الدينية والتي هي بالنسبة لهم أسمى وأشرف من الوحدة الوطنية وذلك بحسب منطق ذلك العهد. لكن مثل هذه الغاية لا يمكن أن تنال إلّا على جسر من التنصير الاجباري لكل كائن حي يرزق على ظهر شبه جزيرة إيبيريا. من هناك نجدهم ينتقلون في تحقيق مهمتهم الى أصعب جوانبها وأخطرها وهو تنصير المغلوبين من المسلمين أو إبادتهم أو طردهم من الأرض التي يعتقدون أنها وطنهم ولا وطن لهم سواها...

أما رأي الدين — كما أشرت سابقا — فإن ثيزنيروس قد أظهر من الحماس والمباركة لمثل هذا المسعى مما جعل الملكان يقرران تنفيذ خططه الجهنمية بدون مناقشة. فدفع بالملكين الى اعتناق أبشع الأساليب التي تتنافى وأبسط حقوق الانسان، من هناك جاء تاريخ 1502 كحدٍّ حاسم مع هذه الأقلية المنبثقة من أوار تلك الحضارة المهزومة. فكان عليهم أن يستجيبوا لشرعة الخيارات الثلاث إما التنصر وإما الموت وإما الجلاء. وفور دخول هذا القرار حيّز التنفيذ أصبح الذين اعتنقوا الديانة المسيحية طواعية أو كرها، ظاهريا أو باطنيا، وكذلك أولئك الذين فضلوا روح المقاومة يعرفون في كتب التاريخ باسم «المورسكيين» (Moriscos) وهي تسمية جاءت كرد على تلك التسمية القديمة التي أطلقت من طرف العرب المسلمين على الذميين أو المسالمين الذين ظلوا على دينهم فكانوا يعرفون باسم «المستعربين» (Mozarabes).

أمّا لفظ مُورسكي فهو من أصل لاتيني إغريقي فالموري (Maurí) حسب رأي المؤرخ الروماني سالوستيو (Salustio) الذي اهتم بالتأريخ لوقائع حرب يوغرطة ضد رومة يرى أن هذه التسمية تطلق على مجموعة

بشرية ذات البشرة السمراء، أما الأصل الاغريقي للتسمية فهو من «أموْروس» (Amaurus) يعني داكن البشرة ومن هناك يشتق للصفة مُورو Moro يعني شديد السمرة وقد تمدّد هذا المفهوم ليتحوّل في العصور الوسطى الى معنى **الانسان غير المسيحي** وهذا حسب رأي الشاعر الاسباني القديم قُونثالو دي برثيبو(Gonzalo De Berceo)، ومن هذه الاشتقاقات انحدرت تسمية مُورسكي التي تعني غير النصراني والموجهة خصيصا لتعيين أقلية المسلمين ودليلنا على ذلك أنها لا تطلق مثلا على أقلية اليهود أو غيرها.

فظلت طائفة المُورسكيين أكثر من قرن تخفي عقيدتها الاسلامية ولغتها العربية كما سيتضح كل ذلك في مجريات الأحداث وذلك بشتى أنواع المقاومة إلى أن جاء تاريخ 1609 ليكون أكثر قهرا وصرامة، وأكثر تحديدا لمصيرهم المتردي ويخيرهم بين أمرين أحلاهما مرّ كما يقال فإما المنفى الاجباري وإما القتل حرقا وبأبشع الوسائل الجهنمية التي لم يشهد تاريخ البشرية أشنع منها ولا أفظع وهذا بشهادة رجال الكنيسة من بينهم وعلى وجه الخصوص الكاردينال ريشولي الفرنسي.

وقد مرت مأساة هؤلاء المغلوبين لتجرع مصيرهم المحتوم بعدة مراحل تعاقب على تنفيذها وتطوير أساليبها بعد الملكين الكاثوليكيين كل من الامبراطور شارلكان (Carlos V)(كارلوس الخامس) الذي كان دوره ابتزاز كل ما تملك هذه الطائفة من أموال ومتاع مقابل التغافل على مصيرهم، لكنه ما انفك أن خلف هذا الامبراطور ابنه الملك فيليب الثاني الذي ورث المشكلة بكل خطورتها ورأى في عدم التعجيل بانهائها إخلال وأي إخلال بأمن البلاد ووحدة الأرض والدين، لأن في مفهومه للقضية أن هذه الطائفة وإن اعتنق بعضها المسيحية ظاهريا فانها ما تزال مستمرة على دين آبائها وأجدادها فإذا صادف مثلا أن فرضت عليهم مراسيم طقوس الزواج المسيحية كرها وتحت مراقبة ورعاية الكنيسة فإنهم ما ينفكون يعودون الى خلواتهم لنسخ تلك المراسيم الاجبارية بمراسيم إسلامية، واذا ما أجبروا على تعميد أبنائهم لتنصيرهم فهم لا يتوانون في

نسخ كل ذلك باقامة احتفالات سرية لختانهم وكذلك الحال مع الأسماء وبقية الشعائر الدينية الأخرى كالصلاة والصيام على وجه الخصوص. من هناك تعين على الملك فيليب الثاني بأن يسارع باتخاذ اجراءات حاسمة لوضع حدّ فاصل لمثل هذا التمادي في العصيان من قبل الأقليات الممعنة في تجاوزاتها وتمردها. فكانت مجمل قراراته هي محاولة إيجاد السبل الناجعة للقضاء المبرم على أي أثر من آثار الاسلام والعربية بين ظهراني هؤلاء «المُنتزين» والعابثين بقيم الصليب. لكن جميع الاجراءات والقرارات نجدها في آخر الأمر تبوء بالفشل الذريع وتتسبب في انتفاضات ومقاومات لم تشهد اسبانيا مثيلها وكان عليه أن وَرَّثَ المشكلة بثقل خطورتها الى ولده ووارث عرشه الملك فيليب الثالث الذي لم يتردد هو الآخر في تفضيل الاختيار الصعب والناجع لمقاومة هذه الأقلية المتمردة التي أصبحت تشكل خطرا داخليا يهدد باستمرار الوحدة الدينية والدنيوية لسكان إسبانيا. ففكر هذه المرة وبمعية الكنيسة في خطة تريح البلاد والعباد إلى أبد الآبدين فكان قراره هو الطرد والطرد الشامل لكل مسلم عربي حتى يقطع دابرهم، وهو القرار الذي عرف حيّز التنفيذ ابتداء من شهر أفريل من عام 1609، وقد سجلت لنا العديد من المصادر أحداث هذه المرحلة الطويلة وما تحتوي عليها من أسرار المتابعة والقمع والتصفيات الجسدية لطائفة الموركسيين ولم تكن وثائق جهاز محاكم التفتيش أو كتب التاريخ أو الحوليات أو المذكرات هي وحدها التي سجلت مثل هذه الأحداث الجسام بل نجد حتى الشعر والشعراء الكبار الذين يتصدرون الساحة الأدبية آنذاك في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين قد شدَّ مشاعرهم مثل هذا الموضوع المأسوي، وخاصة في بعض المناطق التي عرفت شراسة في الابادة، وحدة في نوعية المقاومة، كمنطقة بلنسية لما تنطوي عليه من عمق التجذر لطائفة الموركسيين في أرجائها الفلاحية الخصبة، فكانت لمثل هذه الأحداث ثلاث ملاحم شعرية معاصرة لها :

الأولى : من نظم الشاعر الاسباني ڤاسبار أڤيلار (Gaspar Aguilar)

(1561 ـــ 1623) وعنوان ملحمته «طرد مسلمي اسبانيا من قبل جلالة الملك دُون فيليب الثالث 1610».

الثانية : من نظم الشاعر الاسباني خُوان منديث دي باسكونثيلُوس (Juan Mendez de Vasconcelos) وعنوانها «تجمع المدار من أجل طرد الموريسكيين من الممالك الاسبانية 1580 ـــ 1612».

أما **الثالثة** فهي من نظم الشاعر الاسباني أيضا بيثنتي بيريث دي كويا (Vicente Perez de Culla) وعنوانها «طرد الموريسكيين من الجبال ومن مُويلا كُورتين من طرف سيميون ثاباتا (Simeón Zapata) البلنسي 1635».

فكما نلاحظ من تاريخ الملاحم الثلاث أن الشاعرين أقيلار، وخُوان منديث يعتبران كشاهدي عيان على مُجريات الأحداث وأمّا ثالثهما فهو قريب العهد من تنفيذ قرار الطرد الاجباري النهائي ووثيق الصلة بالمحيط الذي تمت فيه مجريات النفي التعسفية. ومما لا شك فيه أن ذاكرة أهالي تلك المناطق قد أسعفت الشاعر بيثنتي وجعلته يكمل هذه الثلاثية لتنغلق دائرة الحصار التي أجبرت الموريسكيين على تضييع وفقدان كل شيء كالأرض والعرض والمال والذات...

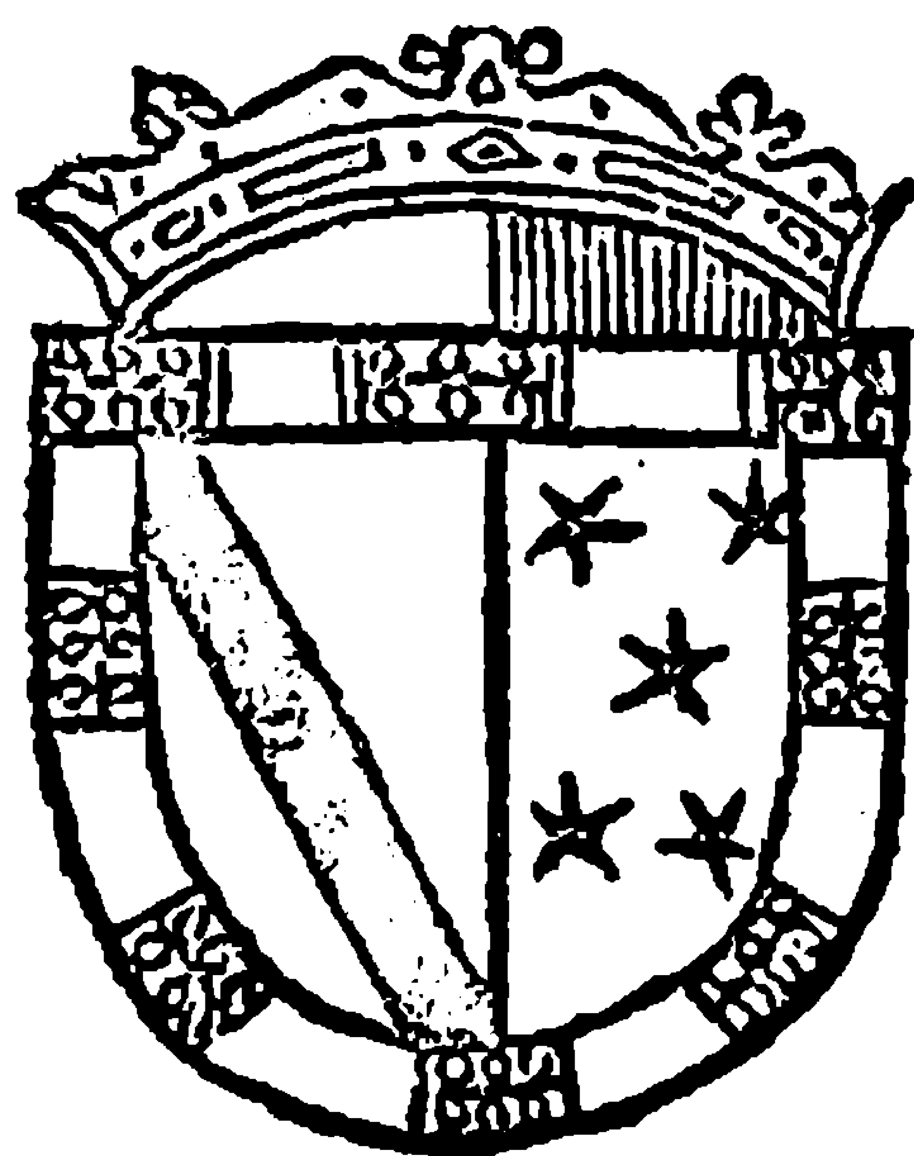
وبالاضافة الى هذه الشواهد المعاصرة للاحداث والثابتة الصلة بموقعها والتي تعتبر في مجملها قد تطرقت لموضوع الاجلاء الاجباري من خلفية مسيحية موحدة النظرة والبعد إلّا أنها تبقى بالرغم من كل ذلك ناقلة للقليل من الحقائق المرة وخاصة ما يتعلق بمنها بالجانب التعسفي من قبل مواطنيهم وسلطتهم الروحية والدنيوية. إلّا أنه الى جانب هذه الوثائق الشعرية الهامة هناك مجهودات أخرى أنجزها العديد من الباحثين في موضوع طرد الموريسكيين وأخص بالذكر منجزات الباحث الفرنسي في هذا الميدان لُويس كارديياك (Louis Cardaillac) في كتابه «موريسكيون ومسيحيون مُواجهة جدلية 1492 ـــ 1610») باريس 1977 ففي هذا الكتاب الهام نجده يشير الى وجود مخطوط من وضع موريسكي يدعى ابراهيم طبيلي «تعرض فيه الى مشكلة طرد الموريسكين وكيفية

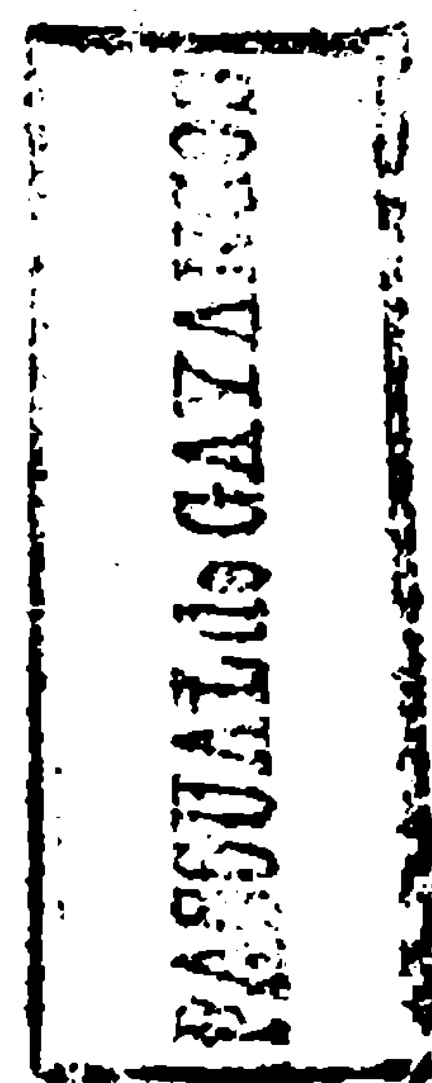
- 241 -

EXPVLSION DE LOS MOROS DE ESPAÑA POR LA S.C.R. MAGESTAD DEL Rey Don Phelipe Tercero nueſtro Señor.

Al Excelentißimo ſeñor Don Franciſco Gomez de Sandoual y Rojas Duque de Lerma, Marques de Denia, Conde de Ampudia, &c.

POR GASPAR AGVILAR.





CON PRIVILEGIO.

En Valencia, en caſa de Pedro Patricio Mey junto a Sant Martin. 1610.

A coſta de Iuſepe Ferrer mercader de libros, delante la Diputacion.

صورة من غلاف ملحمة الشاعر الاسباني قاسبار أقيلار التي نشرت بمدينة بلنسية عام 1610

خروجهم من اسبانيا، وأسباب ذلك مع كل تفاصيل المحنة من خروج ورحيل وأحداث تعرضوا لها سواء بموانىء فرنسا أو بعض المرافىء الافريقية ويقول مؤلف هذا الكتاب انه وضعه شعرا ونثرا»[2] ويُعقب كارديالك بأن هذا المخطوط ما يزال محفوظا بمكتبة (Casanatense) بروما، كما يذكر بأن مؤلفه يشير في الأخير الى أنه شرع في تبييض كتاب آخر قد أنجزه ويدور حول الموضوع نفسه[3].

ولقد تضاربت وتعارضت آراء الدارسين القدامى والمعاصرين حول موضوع الترحيل الاجباري هذا من قبل السلطة الاسبانية. فكان رأي المتعصبين أن من أجل وحدة الشعب السياسية والدينية تجوز كل وسيلة، أما آراء الأغلبية فانها كانت توافق في معظمها على عملية الطرد لكنها حبّذت لو كانت بأساليب أكثر مرونة.. وقد توجت هذه العملية كما نعرف بانتصار ساحق ومؤلم عام 1612 وهو انتصار على قوة مجردة من كل شيء ومن أبسط وسائل الدفاع وحيث كانت لا تملك سوى إيمانها بعقيدتها وتشبثها بالأرض التي نبت منها أفرادها وقد وصل بهم الحد ــ وهذا بشهادة الأسقف فرنتيسكا (Francesca)ـ «الى أنهم بلغوا درجة من الضياع جعلتهم لا يعرفون من يكونوا أهم مسلمون أم مسيحيون؟»، لكن الأسقف خوان بابتيستا بيريث (Juan Baptista Pérez) كان أكثر وضوحا في تحيزه العدائي ضد هذه الأقلية فكان يقول «انه لأقل خطرا أن يكونوا مسلمين هنالك على أن يبقوا وهم نصارى باسبانيا». وفي آخر مطاف المأساة نجد المصادر تحدثنا عن ترحيل ثلاث مائة الف موريسكي (300.000) كانوا يشكلون في معظمهم يدا عاملة رخيصة الثمن، ونشيطة المردود ومحترفة لأرقى الصنائع وعلى وجه الخصوص الفلاحية منها لذا كان لخروجهم أثر فعال على الاقتصاد الاسباني وقد أقر بهذه الحقيقة عدد كبير من الدّارسين سيأتي ذكر بعضهم في سياق الحديث.

---

(2) انظر — Cardaillac : **Morisques et Chrétiens.. pp. 194-197.**

(3) انظر — Cardaillac : **Morisques et Chrétiens.. p. 196**

الملاحم الشعرية كشاهد عيان على مأساة الترحيل

اما اذا نحن رجعنا الى محتوى الملحمتين المعاصرتين لأحداث الترحيل فإننا نجدهما يُوقفاننا على مدى ضخامة ذاك الحدث، وصعوبة الاقدام على تنفيذه، كما يظهران لنا مدى جدّية الملك فيليب الثالث في قراراته واختياراته الموفقة لاعوانه الذين يتمتعون بما فيه الكفاية للاعتماد عليهم حتى لا تتعرض قراراته الى أي تحسُّب أو ردّ فعل يذكر. فقد قرر الملك بمحضر أعوانه المقربين من وزراء وقادة، وكبار مسؤولي محاكم التفتيش في مجمع ملكي مضيق جدا أحيط بسرية تامة لأن المسألة في نظرهم ليست هينة بل تتعدى خطورتها ما يتوجب الاحتياط حتى لا تقع أي هزة بين الطائفتين المتجاورتين والمتعاديتين. فقد وضع الملك في حسبانه ما يمكن أن ينجر عن هذا القرار من احتجاج قد يتقدم به بعض النبلاء الاقطاعيين والمستفيدين المباشرين من تلك اليد العاملة المورسكية الرخيصة الأجرة، وخاصة أن القرار يقترب من موسم جني المحاصيل الفلاحية.

كما كان واثقا من أن إذاعة مثل هذا القرار في أوساط المورسكيين لا يمكن أن يمرّ بسلام دون أن يشهد ردود فعل قد تتحول الى مقاومة شعبية متراصة الصفوف وتكون حافزا لجمع شمل الأقليات المورسكية في مختلف مقاطعات المملكة.

لقد كان المجمع الملكي الأعلى على يقين من كل هذه الاحتمالات لذا نجده يقرر أن تتخذ التدابير التالية لتفادي أي خطر ممكن، فكانت الأوامر صارمة، وكان في مقدمتها الاجماع على أن يظل قرار الطرد طي الكتمان في حين يتعين الاسراع في تجهيز الوسائل التي سيتم بموجبها نقل المورسكيين الى الضفة الأخرى، فتمت كل المشاورات فيما يتعلق بالسبل الآمنة، والسفن اللازمة وما الى ذلك من الاجراءات، كما كان من الضروري أن يستدعي لمثل هذه المهمة الصعبة كل الأساطيل البحرية الاسبانية المرابطة بالشواطىء البعيدة كإيطاليا وغيرها، كذلك اتخذت التدابير الوقائية المستعجلة كتسليح كل مواطني منطقة بلنسية تحسبا

لأي مواجهة قد تنفجر وذلك لما لهذه المنطقة من وضع خاص نظرا لمحاذاتها الى الخطر التركي العثماني المرابط بحوض البحر الأبيض المتوسط والمتمثل فيما أطلقوا عليه شغب أعمال القراصنة. وكان الاتفاق هو أن يتم الاعلان عن قرار المجلس الملكي بالتوازي مع الشروع في عملية الترحيل. وقد أجمعت المصادر التاريخية والأدبية على ربط نجاح هذه المهمة بمدى احترام كل التدابير التي اتخذت، ونظرا للسرية الضيقة جدا التي حظي بها مثل هذا القرار فاننا نجد الملك لا يخبر البابا به إلّا بعد خمسة أشهر تحسبا لأي خطر قد تتعرض اليه المراسلة وهو ما تؤكده المصادر في هذا النص الصريح الذي يقول : «ولم يستطع جلالته اشعار قداسة البابا بالخبر ولا حتى سفيره هناك الى غاية الثالث من شهر سبتمبر من عام 1609 لأنه ربما انجر عن ذلك خطر كبير يؤدي الى فشل الخطة المتخذة لتنفيذ المهمة»(4) كذلك وصل مثل هذا الاشعار الخطير متأخرا الى كل من القائدين أقُوستين دي ميخيا (Agustin de Mejía) وبيدرو دي طوليدو (Pedro de Toledo)، فالأول أوكلت له مهمة الاشراف على عملية الترحيل والثاني عهدوا له بمهمة الحراسة البحرية. كما وصل مثل هذا الاشعار متأخرا ومفاجئا لحاكم مقاطعة بلنسية وهو آنذاك لُويس دي كرّيو دي طوليدو (Luis de Carrillo de Toledo)، والى الأسقف خُوان ريبيرا (Juan Ribera) اللذان أطلعا على فحوى القرار وأمرا بكتمانه الى غاية موعد التنفيذ، وقد بلغهما مثل هذا الاشعار كما تقول المصادر في أواخر شهر أوت من عام 1609(5) كما أخبرا بتاريخ موعد إشعار رؤساء المورسكيين في وقت لاحق مع الاحتفاظ بسريته التامة.

وبعد هذه التدابير السرية أعطيت الاشارة للشروع في تجهيز التدابير الأمنية فكان في مقدمتها اقتناع المملكة بالقضاء الأوّلي على أي خطر يحوم في أرجاء البحر فأوكلت هذه المهمة لقرصانين شهيرين من لصوص

(4) انظر — Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col 1, p. 181

(5) انظر — Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col 1, p. 159

البحر ألا وهما سيميُون دي آنثير (Simeón de Ancer) وهو من أصل صاخوني ودُوارتي (Duarte)، بالاضافة الى الأسطول البحري الملكي الذي استدعي من المحيط الشمالي بقطعه الثمانية عشرة تحت رئاسة لُويس فارخاردُو (Luis Farjardo) فاجتاز بحر الزقاق من توه متوجها الى المرسى الكبير بوهران، وبعد عمليات استطلاعية ومناوشات خفيفة مع بعض القُرصان المنتشرين في عرض البحر تمكنت القوات الاسبانية من تأمين الأجواء وتطهير المحيط وكان موعد لقائها في آخر المطاف هو شواطىء بلنسية فوضعت كل القوات تحت إمرة القائد المتقاعد والخبير بشؤون الحرب الأميرال أقوستين ميخيا (Agustin Mejía). وقد نوّهت الملاحم ببطولات هذا القائد ورفعت من شأنه خاصة فيما سجله في تاريخه الحربي بالأراضي المنخفضة، وفرنسا،وفضلا عن كل ذلك فهو من المسيحيين القدامى. وتضيف ملاحم كل من أقوستين وبَاسْكُونثيلوس فتجعله أكثر بطولة من حنبعل وبومبي، إنه البطل الذي يضاف الى سجل الأساطير اسمه والذي سيتولى القضاء على آخر حرب صليبية. وفي هذا الخضم الهائل من التدابير نجد المورسكيين لا يعلمون شيئا عما يدبر ضدهم في الخفاء ولا يعلمون سوى بما يُحاك ضدهم من مضايقات تقليدية معروفة.

وبالاضافة الى هذه الحشود نجد حاكم بلنسية يعمد الى تعيين اثنين وثلاثين شخصية أمنية كمحافظين للشرطة مهمتهم قيادة المورسكيين الى غاية المراسي الثلاث التي عيّنت لركوبهم وذلك بزعم حمايتهم من أي خرق قد يصيبهم من قبل المسيحيين. كما تم كذلك تعيين أربعة محافظين سامين وهم على التوالي بَلْتَزار ميركدار (Baltazar Mercader) وبيدرو اسكريبا (Pedro Escriva) وهما من فرسان الصليب المقدس وكذلك خوفرى دي بلا نيس (Jofre de Blanes) وحاكم دانية كريستوبال سيدينيو (Cristobal Sedeño) الذين أوكلت لهم مهمة الوقوف عند بوابات المراسي للاشراف على عملية ركوب وإحصاء المورسكيين»(6)

(6) — Jaime Bleda : **Crònica de los Moros de España**, Ed. Valencia - Felipe, Mey 1618, p. 587.

فتحولت بلنسية بكل هذه الحشود الهائلة من الرجال والعتاد والحركة الدائمة الى جوّ يُوحي بانذار خطير اندهشت له العامة من مسيحيين وموركسيين لأن الاعلان عن الغاية من هذا التجمع لم يعلن عنه بعدُ.

إلّا أن المؤرخين أمثال بليدا (Bleda) وبروناط (Boronat) وكذلك الشعراء فإنهم لم يخفوا في تحليلاتهم للأحداث تشخيص السَّبب المباشر لهذا التأهُّب غير العادي، وربما كانت كل الأنظار تشير الى الموركسيين كهدف معنيٍّ بهذا الهرج. أما الرأي العام والمقصود به هنا عامة المسيحيين من الطبقة المتوسطة والفقيرة والتي غالبا ما يقع بينها وبين الموركسيين تصادم مستمرّ بحكم الجوار والتنافس لافتكاك مناصب الشغل الأمر الذي أدى بهذه الطبقة الى تزايد حِقدها على الموركسيين وكانت ترى في الوجود الموركسي منافسا خطيرا يقطع عليها أبواب الرزق الذي أجمعت المصادر التاريخية على أن النبلاء المسيحيين «الذين يملكون في حوزتهم مجموعة من الخدم المسيحين والموركسيين كانوا دائما يفضلون اليد العاملة الموركسية لكونها ترضى بالقليل وفي الوقت نفسه أكثر حيوية في اتقان العمل، ولما يجدُ النبلاء أنفسهم أمام اختيار بين العمال فإنهم لا يترددون في تفضيل الجانب الموركسي حتى ولو على حساب مسيحي قديم» الأمر الذي أوقد نار الحقد في صدور هذه الطبقة وصارت دائمة التربص بالموركسيين مما جعل حاكم بلنسية يصدر قرارا مفاده «أن هناك عقوبات صارمة ستلحق أولئك الذين يتعرضون للموركسيين بالأذى سواء كان مشافهة أو ممارسة»(7).

فالنبلاء المسيحيون ما انفكوا يعربون عن استيائهم الى حاكم بلنسية لا لشيء سوى لكون ممتلكاتهم أصبحت مهددة بمثل هذه التصرفات المشينة من قبل الطبقة العامة المسيحية التي تُضايق باستمرار عمالهم من الموركسيين.

ويجب أن ندرك أنه من خلال المصادر التاريخية التي اهتمت بتلك

(7) انظر — Boronat : **Los Moriscos Españoles**, col 1, p. 182

الحقبة فاننا نجدها تطلعنا على بعض الخفايا الهامة التي تشد أمثال هؤلاء النبلاء الى طبقة الموركسيين فعلى سبيل المثال «فإن حاكم بلنسية ذاته كان في حوزته وتحت رحمته خمسمائة وثمانية وستين (568) عائلة موريسكية تقوم على خدمة ممتلكاته في حين نجد في المقابل ثمانية أسر من المسيحيين القدامى الى جانبهم، أمّا دُوق غانديا فكان في حوزته ألفان وأربعمائة وتسعة وأربعون (2449) أسرة موريسكية مقابل الف وتسعمائة واثنتين وسبعين أسرة مسيحية (1972)... كذلك دُون كَاردُونه فإنه كان يمتلك ألفا وسبعمائة وثمانية وستين (1768) اسرة مُوريسكية مقابل مائتين واثنتين وعشرين (222) اسرة مسيحية»(8).

فأمثال هؤلاء النبلاء الذين أصبح يعنيهم مباشرة مصير الموريسكيين فإن استياءهم لم يخف على العام والخاص علما أن مثل هذا التهديد المستمر للاقتصاد الاسباني طيلة القرن السادس عشر ظل قائما ومحل جدل طويل. فقد ظهر في معارضة منظمة من قبل النبلاء عام 1510 وتمكنوا من اقناع الملك الكاثوليكي آنذاك فرناندُو دِي أراغُون من إصدار مرسوم ملكي يعفي بموجبه موريسكيي منطقتي بلنسية وأراغون من التنصير الاجباري الذي يمارسه رجال الدين ضدهم وذلك مقابل الاحتفاظ بهم كيدٍ شغيلة نشطة».

إلّا أن حاكم بَلنسية وإن كان يعنيه مستقبل الموريسكيين فانه احتفظ بسرية قرار التهجير الى غاية الواحد والعشرين (21) من شهر سبتمبر من عام 1609 ممّا جعل بث مثل هذا القرار يحفز النبلاء على الاقدام على مفاتحة الملك مباشرة في هذا الشأن، فعينوا لهذه المهمة سفيرين من النبلاء هما على التوالي فيلبي دي بويل (Felipe de Boyl) وخوان برنقير (Juan Berenger) وذلك قصد اقناع الملك بالتراجع عن مثل هذا القرار الخطير في حق المردود الاقتصادي... وقد أشار الشاعر أقيلار(Aguilar) في ملحمته الى هذا المسعى في هذه المقطوعة التي نترجمها كالآتي :

---

(8) انظر — Juan Regla : **Estudios sobre los Moriscos**, pp. 153-170.

... لو يغادر الموركسيون فجأة
ستبقى المملكة ضائعة وفقيرة
لأن كل تجارة القوم
بأيديهم يُدار أمرها[9]...

وتتفق المصادر التاريخية فيما بينها حول فحوى هذه الشكوى إلّا أنها لم تحظ باستجابة الملك وتقرر بعدها المصير المحتوم للموركسيين الذين حدّد لهم تاريخ الثاني والعشرين (22) من شهر سبتمبر عام 1609 كموعد لاجلائهم، كما تقرر أن تتمَّ عملية الترحيل في بحر ثلاثة أيام، واشترط على كل فرد أن لا يتجاوز حمولة اليد ويترك بقية ممتلكاته ومتاعه لسادته النبلاء المسيحيين الذين كان مرتبطا بهم اجتماعيا، فكان هذا القرار بمثابة الترضية لأولئك النبلاء الذين تكتلوا ضد القرار وأظهروا استياءهم، فلما رأوا أن مساعيهم قد أثمرت من حيث لا يتوقعون ورُزقوا بمحاصيل جديدة تثاقلوا في احتجاجاتهم ونظروا الى العملية كقدر سماوي، بل نجد بعضهم لم يخف تهليله وإن جاء متأخرا لأن الملاحم الشعرية لم تترك مثل هذا الشعور المنافق مغمورا، فقد فضحوا نوايا هؤلاء السفهاء بصريح اللفظ دون التلميح كما ورد ذلك على وجه الخصوص في ملحمة أڤيلار المقطوعة السابعة والعشرين (27). وقد زاد من فرحتهم صريح القرار المرافق الذي حذر الموركسيين من مغبة اخفاء أي شيء أو حرقه أو إتلاف للمحاصيل؛ فكانت الرقابة جدُّ متيقظة وصارمة مع المتهاونين بأمر القرار. وبما أن مدة الانذار بالرحيل قد تزامنت مع موعد الرحيل فقد أدى مثل هذا التعجيل الى إرباك الموركسيين ولجوئهم السريع إلى التخلص من ممتلكاتهم بشتى وسائل أنواع البيع، مما أدّى بالمبيعات أن تعرف انخفاضا في الأسعار تجاوز نسبة التسعين بالمائة 90% الأمر الذي أدى بالسوق أن تعرف مضاربات تسببت في خلق

---

(9) انظر ملحمة — Gaspar Aguilar : **Expulsion de los Moros de España por la S.C.R. Magestad el rey Don Felipe tercero (III) nuestro señor.** Ed. Valencia, en Casa de Pedro Patricio Mey junto a Santa Maria, Valencia, 1610, p. 24.



N tanto, que del Reyno de Valencia
falir los Moros por fu gufto emprenden,
y con grande cuydado y diligencia
vnos dan, otros truecan, otros venden.
En tanto que obedecen la fentencia,
de tal manera, que a ninguno ofenden;
y fi alguna vez pierden el decoro,
es con aquellos que les ciega el oro.

En

Pues fi falen los Moros de repente
queda el Reyno perdido y miferable,
porque todo el commercio de la gente
con ellos tiene trauazon notable.
Mas fi efto no conuiene que fe intente,
por no dar gufto al Moro abominable,
no fe hable dello mas, queden fufpenfos
frutos, obligaciones, rentas, cenfos. 77.

Dixo, y con general aplaufo y gufto
de todos fue admitido efte confejo:
quifieronle imbiar como era jufto,
y dexo de aceptallo por fer viejo:
Fueron nombrados por fu pecho augufto
y por fer qualquier dellos vn efpejo
de fu admirada y temerofa tierra.
Don Felipe Buyl, Don Iuan Vallterra.

نماذج شعرية من ملحمة الشاعر ڤاسبار أڤيلار

وضع اقتصادي فظيع جعل حاكم بلنسية يُردِف قرارا ثانيا ومفاجئا في فاتح أكتوبر من عام 1609 يمنح المورسكيين حرية حمل نصف ممتلكاتهم من المتاع وذلك لامتصاص الفيضان الذي أغرق الأسواق وتسبب في كساد أنواع تجارية أخرى. لكن مثل هذه التدابير لم تحل اشكالية المضاربات فراحت السلطة تعلن عن قرار آخر يسمح لستة بالمائة من المورسكيين بالبقاء إلّا أن هذا القرار الاستثنائي ما انفك أن ألغي في التاسع (9) من شهر يناير من عام 1610 الأمر الذي جعل الفرحة تعمُّ الأوساط المسيحية على اختلاف مستوياتها الطبقية وكما تذكر الملاحم أيضا أن مثل هذه العملية لا يمكن أن تُقاس إلّا بتلك المعجزات السماوية، فهللت الحناجر بالشكر والحمد وغصّت الكنائس بدوي الأجراس ورفعت الصلبان فوق كل مرتفع، ولم تقف الفرحة عند هذه الحدود بل تجاوزت الى إقامة احتفالات عارمة خرقت حدود الوعي حتى تسببت في فضائح ومخالفات أدت برجال الأمن الى المسارعة باقامة الحدود على المتهورين. وكان مثل هذا الخلاص بالنسبة لهم هو ضرب من العناية الالهية التي ما انفكت الكنيسة تبشرهم وتُوعدهم بحلولها عليهم لا محالة.

مُجريات أحداث الترحيل الاجباري حسب رصد الشعر الملحمي لها

لقد بدأت عملية الجلاء بمشاهد أقل ما يقال عنها أنها جِد محزنة ومأساوية، أودية من البشر من مختلف الأصناف، فقراء وأغنياء علماء وجهلة، نساء ورجالا أطفالا وبناتا، شيوخا وعجائز يحف الجميع أنين ودوي جعل الشعراء يطلقون عليه أوصافا مجازية متعددة الأبعاد كالقطعان التائهة مثلا أو أزيز النحل؛إنها مسيرة محتومة يحيطها جو من الرعب والحقد لوجوه كالحة تتلمّظ حقدا وكراهية وتنتظر بفارغ الصبر لحظة الخلاص من هذا الخطر المتشبث باسبانيا، الأرض التي يغادرونها مكرهين في ظروف عِدائية بعد تسعة قرون عددا من الحضور المشرق والعطاء المستمر التجدُّد.. إنها ساعات الآزفة لكن إلى أين؟ ولماذا؟ وكيف السبيل؟ ومتى موعد الاستقرار؟ تساؤلات ينتظرها البحر لتلفظها

شطآنه على إثر طي أشرعة مراكب التهجير... إنها مسيرة متعبة ومكللة بالعذاب حيث لم يسمح لهم فيها بأبسط الوسائل للنقل، وكل ما يرغب فيه الفرد عليه أن يتجشم معاناته على ظهره وله أن يختار بين المتاع والولد لأنه لا مجال للانتظار ومد يد المساعدة.تعب يرهقه تعب آخر أوقف شاعر الملحمة منديث ليعبر عن أوجاع المصير بهذا الوصف :

هجرة مضنية، أمر فظيع
مشحنة بالمبهم، أحزان ثقيلة
في غمرتها ينفذُ الصبر
وترتعش لها آلام الروح العدوّة..[10]

ويصفهم الشاعر أقيلار في ملحمته

... شيخ يجرر طفلا بيده
وآخر تلفه أمه على صدرها
وفتى آخر كذاك الطَرْوَادِي
قد حمل والده على ظهره[11]

وقد عمد الشاعران الى استخلاص صورهم الفنية من الأجواء الملحمية، ولم يجدوا مثيلا لمثل هذا الخروج المهول سوى تلك المشاهد التي عرفتها مدينة طروادة الأسطورية حيث خرج المنهزمون تجاه المنفى الاجباري تاركين وراءهم الدمار وقاصدين في مسيرتهم بوابات المجهول ذاك هو المشهد الذي جعل شاعرا كمنديث دي باسكونثيلوس يوقفه منظر امرأة وقد حملت على صدرها طفلين وعلى ظهرها كذلك دون أن تتحرر يداها من طفلين آخرين[12] كما ركز الشاعر على تصوير ذاك

---

(10) انظر ملحمة — Juan Mendéz de Vasconcelos : **Liga deshecha por la expulsion de los Moriscos de Los reynos de España**, Ed. Por Alonso Martin año 1612 Madrid, p. 44.

(11) انظر ملحمة — G. Aguilar : **Expulsion.., p. 42.**

(12) انظر ملحمة — J.M. de Vasconcelos **Liga.. folio n° 43,**

الزحام بين الغرباء المتوجهين الى المنفى انهم يسرعون وكلهم يريد أن يكون في مقدمة المسيرة. وقد تمت مجريات الترحيل حسب رأي المؤرخ الفرنسي هُنري لابيري (Henri Lapeyre) في كتابه «جغرافية اسبانيا الموركسية» كالتالي : «كانت قافلة دَانية التي انطلقت في البداية تحت إمرة ماركيز سانتا كُروث الذي تكفل بترحيل سكان ضياع ڤانديا التي هي من ممتلكات الدُّوق الذي تحمل نفس اسمه والذي يعد من أكبر نبلاء المملكة، وكان من حظ هذه القافلة أن تجتاز مسافة جد قصيرة حيث تم شحنهم على متن سفن بحسب التواريخ المتوالية؛ اذ انطلقت البداية يوم 30 سبتمبر وتعاقبت في اليومين المواليين من شهر أكتوبر على متن سبعة عشر يختا نابوليا فكان عدد الحمولة 3.803 نفرا، كما تم الترحيل أيضا على متن بعض السفن التجارية كانت حمولتها 1.536 نفرا. أما انطلاق هذه القوافل فكان في يوم 2 أكتوبر مع سقوط الليل وأدركت السفن مرسى وهران في اليوم الخامس من شهر أكتوبر»(13).

وقد أشادت ملحمة أڤيلار (Aguilar) بمجهودات دُوق ڤانديا المستفيد المباشر من هذه العملية، حيث كما ذكرنا أن كل ممتلكات هذه المجموعة الهائلة من المرحلين قد ضُمت الى ملكيته وذلك بقرار ملكي، وليس ذلك بغريب أن ينعته الشاعر بهذا الوصف الذي ينمُّ عن راحة باله قائلا :

... لم ينعم مطلقا براحة أو هَوادَة
حتى أقلع كلّ من كان تحت إمرته(14)

وبعد خروج الموركسيين من منطقة دَانية توالت الترحيلات المستعجلة من مختلف الموانىء الأخرى كميناء بلنسية القاعدة الأساسية وميناء أِلكنتْ وغيرهما؛ والملاحظ على هذه العملية الأولى أنها اتسمت بصرامة التنظيم والسرعة في التنفيذ مما جعل المملكة تجند الى جانب

(13) انظر — Henri Lapeyre : **Géographie de l'Espagne Morisque**, Paris, S.E.V.P.E.N. 1955, p. 55.

(14) انظر ملحمة — G. Aguilar : **Expulsion...** p. 42.

أسطولها سفنا تجارية لبعض الأجانب. وقد ورد في إحدى إشارات المؤرخ الاسباني الشهير دُومنڤيت أورتيث (Dominguez Ortiz) «بان الذين استقلوا السفن التابعة للأسطول الملكي كانت رحلتهم حسنة المعاملة وأما الذين ركبوا السفن التجارية للخواص فقد لقوا من سوء المعاملة الكثير مع سوء نية ربانها»[15]. وقد أشارت بعض المراجع الأخرى وكذلك القصائد الملحمية ومنها على وجه الخصوص ملحمة منديث دي باسكونثيلوس (Mendez de vasconcelos) الى سوء الاستقبال الذي حظي به هؤلاء المطرودين أثناء نزولهم بمدينة تلمسان حيث تعرضوا الى سطو ونهب العامة الذين أمعنوا في إهانتهم والاستحواذ على ما يملكون غصبا مما جعل حالهم يزداد سوءا الأمر الذي دفع بالذين ينتظرون حظهم من الرحيل يبلغهم ما يتربص بهم عند الوصول سواء الى تلمسان أو وهران أو الجزائر فولد فيهم الشعور برغبة التشبث بالمصير المعيشي فبدأت تظهر علامات محاولاتهم لرفض اجراءات الترحيل مما أدى بهم الى الدخول في مطب جديد اتسم بالمعارضة والمقاومة وهو ما سيأتي ذكره فيما بعد. لذا لم يخف على شاعر كمنديث دي باسكونثيلوس مثل هذا الاحساس الجديد والرغبة في التمرد حيث كانت نية الموريسكيين المبيّتة هي المقاومة :

... المحاولة بالسلاح والعنف والحرب
التشبث بالأرض والدفاع عن الوطن

وهكذا يلاحظ أن غالبية المؤرخين الذين عاصروا الأحداث وكذلك الشعراء يقرون ضمنيا بانتماء هؤلاء الى الأرض الاسبانية، كما يعترفون بمواطنتهم وأنه لا أرض لهم سواها.

من هذا التوتر الجديد انفجرت شرارتان للمقاومة الشعبية الموريسكية ضد النظام الملكي الاسباني المسيحي، رافضة قرار الترحيل التعسفي

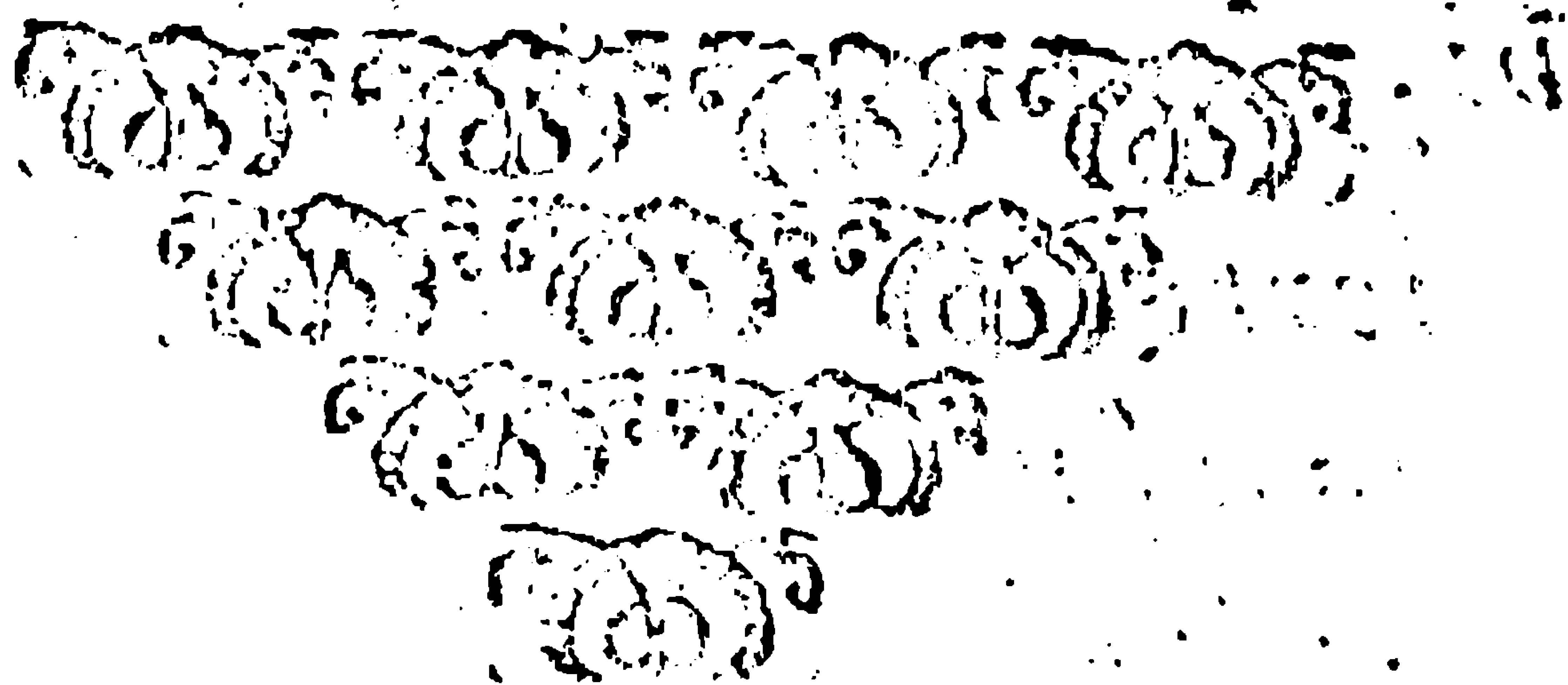
---

(15) انظر، — Antonio Dominguez Ortíz : **Felipe II y los Moriscos.** Ed. M.E.A.H., Granada 1959, p. 182.

Parte el Morisco vando confiado,
Con otros muchos que llegado auian,
Sin auerse de aquel mal rezelado,
q̃ en sus pechos los otros ya sentian:
Vn valle caminando, y verde prado,
Por la cuesta de vn monte se subian,
El qual traspuesto, al pũto bueluẽ lue-
Todos los Moros al passado juego (go
Aqui ya el daño fue con mayor pena;
Pues las niñas, muchachas, y donzellas
Con lo que el torpe vicio desordena,
A la vista de todos gozan dellas:
Qual eslauones vã como en cadena;
Teniendo diez y doze las mas bellas,
Adonde la que es fea no descansa,
Que aun a las tales este daño cansa.
Sufren mal este caso los Moriscos,
Que es en negocio tal gente zelosa,
Los arboles desgajan y lentiscos,
Con semblante de furia belicosa:
Quiebrã las peñas y assentados riscos
De aquella aspera sierra peñascosa,
Cuyas piedras la honda rezio tira,
Con que el Moro del d[illegible]

نماذج شعرية من ملحمة الشاعر الاسباني خوان منديث دي باسكونثيلوس
المنشورة بمدريد 1612

Perfida canalla fementida,
Ingrata turba, desleal y auara,
De quien la Magestad santa ofendida
Ha sido sin razon de verdad clara:
Pues aqui pagareys gente atreuida,
A las manos de aquesta plebe ignara,
Vuestras apostasias, mal, y daños(ños.
Cótra aquel q̃ os aguarda ha tantos a-
las manos de aquesta gente infame
De la misma nacion y obscura seta,
Quiere q̃ vuestra sangre se derrame,
Aquel diuino Rey summo Profeta:
Aqui la ingrata voz suspire y clame,
Con rigor de justicia santa y reta,
No halle amparo, ni camino cierto
Quiẽ negò la verdad del viuo puerto.



واشتعلتا بجبال بلنسية فكانتا من أعنف وأخصب المقاومات الشعبية التي عرفها تاريخ القرن السادس عشر الميلادي.

الفصل الثالث

- انتفاضة الموريسكيين بجبال بلنسية حسب رصد الشعر الملحمي لفصولها ونتائجها
- انتفاضة الموريسكيين بجبال مويلا دي كورتيس
- انتفاضة الموريسكيين بجبل لاغوار

انتفاضة الموركسيين بجبال بلنسية حسب رصد الشعر الملحمي لضراوتها ونتائجها

لعل الدافع الرئيسي للانتفاضتين يكمن في عمق إحساس الموركسي تجاه أرضه ووطنه الذي فرضت عليه سِياط القهر والتعسف مغادرتها وقطع أواصر انتمائه بها؛ إنها محاولة اجتثاث بالقوة لقلع ما تبقى من ثمالة حضارة دُكت وانهدت وعفى عليها الزمن الذي لا يرحم فغادرت وراءها شِرذمة مسحوقة بين عدو متربص ومصير مجهول؛ إلّا أن هذه الشرذمة أرادت أن تراهن بآخر نفس لذا كان عليها أن تختار الطريق الصعب، طريق المواجهة ورفض الأمر الواقع؛ ولم يكن مثل هذا الخيار هو الأول من نوعه في سجل تاريخ الموركسيين بل نجدهم منذ عام **1510** تنطلق عواصف تمردهم وتتوالى احتجاجاتهم الساخطة متعالية في كل منطقة عرفت حضورهم سواء كان في شمال شبه الجزيرة الايبيرية بمناطق كأراغُون وقشتالة أو بجنوبها في جبال البشارات بضواحي غرناطة والتي شهدت أعنف المقاومات المسلحة مما جعل مثل هذه الهزات تزيد في عمر الوجود العربي الاسلامي ليمتد على طول الأعوام الرابطة بين تاريخ **1492** وهو تاريخ تسليم غرناطة الى غاية **1612** وهو تاريخ خروج آخر البقايا العربية الاسلامية من أرض الأندلس المغلوبة. فطيلة هذه الحقبة كان لسان حال الموركسيين هو المقاومات الشعبية المسلحة والمنظمة

والمدربة كلسان حال ناطق في وجه زبانية محاكم التفتيش الذين كانوا الخصم والحكم في الوقت نفسه، وكانوا الأوصياء باسم الأب والابن وروح القدس وباسم قداسة البابا الصليبي الذي ما انفك يزيد الطين بلّة لإذكاء حمية التعصب والحقد.

لقد عجزت الوسائل القمعية على إخماد صوت هذه الأقلية، وَأشربتْ قلوب أعدائهم غيظا وحقدا فما زادهم هذا الاحساس سوى إصرارا على مواصلة القطيعة واحتدام التطاحن والتجافي ولم توجد بين الطائفتين من روابط اللقاء ما يجعل التفكير ولو نظريا في إيجاد وسيلة للتفاهم أو التعايش؛ فالطرف المسيحي كان حاسما في مثل هذا الاجراء وقرارهم النهائي ظل يكمن في رغبة اجتثاث هذه النّبتة من عروقها كي تتطهر منها تربة المسيح والعذراء لأنها فصيلة من البشرية غير متجانسة معهم ولا يمكن أن تتقاسم معهم الآمال والمآسي؛ ولا يمكن أن تكون متضامنة معهم لا في الشدة ولا في الرخاء ذاك هو قرارهم الأول والأخير الذي سيتضح ميدانيا في قرارات التهجير القاسية.

لقد صار فتيل الثورة على مقربة من عُود الثقاب وقد تجاوزت مرحلة حرب الكلام وأصبحت النفوس تتقد لتفضي بما في مكنونها من ألم وانسحاق فجاءت أحداث الترحيل لتكون ذريعة لاعتلاء مراقي النسور كملجإ لاعلان الرفض والتحدّي للقدر الذي أبى إلّا أن يكون محتوما أمام طريق المجاهدين المورسكيين.

فأولى الثورتين انطلقت من جبال مويلا دي كُورتيس الممنعة بوعورتها مما جعل منديث دي باسكونثيلوس ينعتها بوصف يذكرنا بوصف النابغة لبيوته المنيعة من صوْلة النعمان(1) فيقول منديث في ملحمته :

... إنه لجبل منيع
بشكله المستدير المجرد من أي انحناء

(1) يقول الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني مخاطبا النعمان بن المنذر :

وحلّت بيوتي في يفاعٍ مُمنعٍ ... تخال به راعي الحمولة طائرا
تزل الوعول العُصم عن شرفاته ... ويضحى ذراه بالسحاب كوَافرا

صعب على الرؤية اختراقه[2]..

فهذه المنطقة الجبلية التي احتضنت الثوار الموريسكيين يظهر أنها لم تكن الصدفة هي التي رمت بهم في أحضانها، فحسب بعض المراجع التاريخية فإن جبال كُورتيس كانت قد آوت محاولتين للانتفاضة جربها الموريسكيون فأولاهما كانت في 20 من شهر أكتوبر عام 1609 لكنها ما لبثت ان قمعت بمجابهة شرسة مما جعلها تفرق الجموع العائدة بهذه الجبال. أما ثانية المحاولات التمردية فقد أعلنها قرابة الثلاثين مجاهدا من الموريسكيين الاشداء بتعبير الملاحم واستطاعوا مجابهة القوات الملكية وأعوانها من المتطوعين والقناصين المحترفين لمدة سنتين كاملتين الى غاية 1611.

انتفاضة الموريسكيين بجبال مُويلا دِي كورتيس (Muela de Cortes)

تقول المصادر إن الانتفاضة التي شنّها المجاهدون الموريسكيون بجبال كُورتيس كانت قد اندلعت على إثر تجمع موريسكي سلْمي توافد من عدّة مناطق للاحتجاج على قرار الطرد وللأسباب التي انجرت عنه كمخاطر الاستقبال بالضفة الأخرى والتي تقرها المصادر العربية هي الأخرى **كنفح الطيب** للمقري مثلا. فقد ضمّ هذا التجمع الهائل قُرابة ستة آلاف مجاهد مدجّجين بالسلاح ومهيئين للدفاع عن كرامتهم تحت قيادة رجل انتخبوه من بينهم يُدعي بيثنتي توريخي (Vicente Turiji) كما يذكر المؤرخ الفرنسي هنري لابيري (Henri Lapeyre) في كتابه جغرافية اسبانيا الموركسية»[3].

فقد تجهز هؤلاء بالمؤن والسلاح اللازمين ونصبوا مواقعهم محاذية لمجرى نهر شقر الذي كثيرا ما تغنى بجماله الشاعر الجنّان الأندلسي ابن خفاجة في عصور الهناء.

فكان لهذا التحرك أثره المفزع في جنب المملكة وفي حرم الكنائس

(2) انظر ملحمة — J.M. de Vasconcelos : **Liga..** folio n° 29

(3) انظر —H. Lapeyre : **Géographie de l'Espagne**, p. 67

فقد تجاوبت على إثره صفارات الانذار وبوقات الدعايات المغرضة واستدعي على الفور قطاع لومَبرْدْيا ومختلف المتطوعين والقناصين من قرى مجاورة كشاطبة والجزيرة وغيرهما...

أما القوات النظامية فكانت تحت قيادة المركيز پيدرُو دِي طوليدو (Pedro De Toledo) الذي انطلق بمجموعة من فوره الى مواقع الثوار وشرع في تنفيذ خطته الوقائية فطوّق المنطقة قصد عزلها عما جاورها قصد ضمان عدم التكاثر وغلق أبواب المؤن، وبعدها طلب من المعتصمين بالجبال التفاوض فرد عليه المورسكيون فورا بقرار مفاده تعيين لجنة من المفاوضين من الطرفين وكذلك المكان الذي من الشروط أن يكون بمعزل عن أي خطر. فاستجاب الطرفان لخطة التفاوض وعينوا اثني عشر عريفا للقيام بهذا الأمر حيث تولى الحديث باسم السلطة الملكية ستة أشخاص من بينهم من يُجيد اللغتين وكذاك الحال بالنسبة للمجاهدين المورسكيين وانطلقت المحادثات لمدة ثلاثة أيام متوالية دون أن تسفر أي نتيجة تُرضي الطرفين وذلك نظرا لتشبث كل طرف بمواقفه وفرض ما لديه من اقتراحات على الطرف الآخر.

أما نقطة الخلاف الأساسية والحساسة في هذه المفاوضات فكانت رغبة المورسكيين الملحة على تمديد أجل الترحيل لمدة سنة يجمعون فيها محاصيلهم ويرتبون أمورهم، لكن ردّ الطرف المسيحي كان الرفض القاطع والجازم ومن هناك فُسح المجال للمجابهة ميدانيا لوضع حد النزاع.

فتحرك قائد الحاميات الملكية پيدرو بقواته لاقتحام عرين المجاهدين المورسكيين قصد استئصال شأفتهم حتى ولو أدى الأمر الى إغراق الطرفين في بحر من الدماء وكان له في آخر المطاف ما أراد حسب رأي المصادر، حيث انطلقت قواته مدعمة بالمتطوعين والقناصين وحاصرت كمائن المجاهدين وحكّمت القتل فيهم وذلك نظرا لعدم التكافؤ بين الطائفتين المتقاتلتين لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد فما هي إلّا ساعات من المجابهة البدنية حتى أعلن المورسكيون تراجعهم مخافة الابادة الشاملة وأعلنوا قبولهم بشروط الترحيل فاستنزلوهم من معاقلهم وقادوهم

الى الموانىء على الفور. أما قائدهم تُوريخي فانه سيق الى المقصلة ونفذ فيه حكم الاعدام الأقصى وبعدها علق رأسه على إحدى بوابات مدينة بلنسية وذلك في شهر ديسمبر من عام 1609.

وكان اختيار المورسكيين السلمي قد أوقد حفيظة المتعصبين الذين كانوا يمنُّون أنفسهم بمجزرة رهيبة.

ويظهر أن انتفاضة جبال كورتيس حسب المصادر التاريخية لم تنته بانتهاء قائدها، بل استمرت جماعات قليلة في التشرد والعصيان ودامت محاولاتهم الشجاعة ما يقرب من سنتين كاملتين الأمر الذي أعيى السلطات القمعية ببلنسية مما جعلها تُولي أمرهم الى القُناص المحترفين وقد لبى تنفيذ مثل هذه العمليات على التوالي كل من غارسيا برَابو دي أكونيا (Garcia Bravo de Acuña) الذي ترأس مجموعة من قطاع الطرق والقناصين لكنه فشل في تحقيق رغبة محاكم التفتيش واستدعي بعده القائد سيميون ثاباتا (Simeón Zapata) عميد اللصوص، آنذاك فاستخدم كل وسائل التنكيل مما جعل الملاحم ترفع من وضاعته الاجتماعية وتلحقه بمصاف الأبطال الخرافيين كما فعلت قبل خمسة قرون مع قاطع الطرقات السيد القَمْبِطُور (Cid Campeon) الذي قتل على يد المرابطين.

وقد أجمعت المصادر الموثوق بصحتها أن عدد المجاهدين بعد اغتيال قائدهم كان خمسة وثلاثين شابا يتمتعون بفتوة خارقة وإيمان راسخ، ومعرفة جدٍّ دقيقة بمسالك المنطقة وحسٍّ فريد التصور بالانتماء الى الأرض التي منها جاؤوا ومن أجلها يكافحون. وطوال سنتين كاملتين يذكر لنا المؤرخ الفرنسي هُنري لابيري (Henri Lapeyre) مشيرا الى نهاية الثورة والثوار معتمدا فيما يقول على بعض الوثائق المخطوطة «أنهم كانوا ثلاثة وثلاثين الذين حملوا على متن سفينة في اتجاه الجزائر وذلك يوم 6 مارس من عام 1612»(4) أي أنهم افتقدوا طوال سنتين من الكفاح شهيدين وهكذا كانت نهاية ثورة جبل مويلا دي كورتيس التي ما تزال الوثائق الى

---

(4) انظر — H. Lapeyre: **Géographie de l'Espagne**, p. 67

يومنا هذا تضيف المزيد من المعلومات حول بسالة وثبات تلك الأقلية التي كتب عليها أن تصبح شاهدا على حضارة أعطت الكثير وجنت الدماء والتشرد والمقت لصانعيها فكان مصيرهم الختامي لا كما أرادت العناية الالهية بل كما رغبت نزوة محاكم التفتيش.

انتفاضة المورسكيين بجبل لاغُوار Laguar

إن هذه الانتفاضة المورسكية نجدها تتزامن تقريبا مع السابقة التي فصلنا الحديث فيها، اذ نجد الدوافع ذاتها هي التي حفزت أو بالأحرى أجبرت المجاهدين على اعتناق التمرد كحلّ أمثل من الممكن أن ينقـذهم من عدو متربص بهم وأعراب ينتظرونهم وراء البحر للفتك بهم وبما يملكون، لقد أشرت قبل هذا أن المورسكيين المرحَّلين واجهوا ما لم يكونوا ينتظرونه بين ظهراني إخوانهم سواء بتلمسان أو وهران أو الجزائر إلّا أن المصادر الأجنبية بما فيها الملاحم جلها تجمع على ذكر سوء الاستقبال ونحن نعلم أن مثل هذا الاجماع لا نجده قاصرا على أصحاب الحوليات التاريخية من النصارى بل نجد ما يعززه في بعض المصادر العربية ككتاب «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» لمؤلف مجهول، حيث نجده يشير وهو بصدد الحديث عن رسالة كتبها أبو عبد الله بن قطية ردا على رسالة أحد أصدقائه وقد وصلتنا هذه الرسالة منقولة من طرف عُبيد الله أحمد بن يحيي بن محمد بن علي الونشريسي الذي فرغ من نقلها يوم الاحد التاسع عشر (19) لذي القعدة من عام ستة وتسعين وثمانمائة 896 م، حيث يظهر من فحوى الرسالة تذمر بعض المورسكيين المهجرين الى دار الاسلام ببر العدوة، فضاقت بهم الحال مما جعلهم يفكرون في وسيلة للرجوع الى دار الكفر فيقول النص «وربما حفظ عن بعضهم أنه قال على جهة الانكار للهجرة الى دار الاسلام التي هي هذا الوطن صانه الله أإلى ها هُنا يهاجر من هناك؟! بل من ها هنا تجب الهجرة الى هناك!! وعن آخر منهم ـــ المقصود دائما المورسكيين ـــ أيضا أنه قال : إن جاز صاحب قشتالة إلى هذه

النواحي نسير اليه فنطلب منه أن يردنا الى هناك»[5].

مثل هذا اليأس المفزع من دار الاسلام يعاضده ما ورد في المصادر النصرانية وهو من الدوافع الكبرى لانطلاق الانتفاضة بجبل لاغُوار، هذه الانتفاضة التي أضفى عليها شعراء الملاحم المذكورة جوا ملحميا مثيرا، فشاعر معاصر لها كأڤيلار (Aguilar) نجده يطعِّم تفاصيلها بأحداث درامية قد تكون من وحي خياله الخصب، أو من واقعها الدامي وذلك لأننا لم نظفر بما يؤيدها في المصادر والوثائق التاريخية التي اهتمت بتلك الأحداث. إلّا أن فحص هذا الوَهَج الأسطوري الذي حلّى به الشاعر ملحمته لا يمكن الجزم بإلغائه لأن الأوضاع المأسوية التي أحاطت بمصير المورسكيين تجعلنا نتوقع إمكانية حدوث أي نوع من أنواع الغرابة والخوارق، كما أن حتمية الجوار بين المورسكيين والنصارى تجعلنا لا نلغي امكانية وجود مثل هذا الحدث الدرامي والذي مفاده كما تنص الملحمة أن شابا مورسكيا مسلما يدعى عبد الله تعلق بفتاة نصرانية تدعى تُودُورا (Tudora) وبلغ تعلقهما الى درجة تواعدهما بالزواج بل أوشكا على إتمام مراسيم القِران لولا تفاقم الوضع فحال دون تحقيق رغبتيهما وذلك نظرا لدخول قرار الجلاء، أو الترحيل الاجباري حيّز التنفيذ فكان مصيرهما المفاجىء هو الفِراق، فوجد عبد الله نفسه في حشد المرحلين ووجدت تُودُورا نفسها مبعدة عنه بحكم تعسفية القرار واستحالت آمالهما الى التلاشي، ونجد الملحمة تُحبك لهذا القانون الجائر خيوطا درامية لتزيد من فظاعته وإجحافه حيث لم يتوان البطل عبد الله من اغتنام أول فرصة ليجد نفسه الى جوار خطيبته، ولما جنّ الليل تسلل الخطيبان ويمّما شطر الجبل وعلى اثر هذا التسلل خرجت دورية في طلبهما فلم تجد أدنى صعوبة من العثور عليهما، فأما الفتاة النصرانية فإنها قد تعرضت لانتهاك شرفها كما تقول الملحمة، من قبل أهل ملتها وأما مصير عبد الله فإنه لم يتماسك أمام بربرية المشهد فاندفع على الجاني بخنجره دفاعا عن شرفه وشرف من ستصبح زوجة له، لكن كامل حراس

(5) انظر **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر** لمؤلف مجهول: تحقيق الالماني مركوس خُوزيف موليز، نشر بميونيخ عام 1863، (ص 32 — 34)

الدورية ألقوا بثقلهم العدائي عليه وطرحوه أرضا وانهالوا عليه بكل وسائل التعذيب الى درجة جعلته يفقد وعيه ويدخل عالم الاغماء»(6).

أمّا الخطيبة فإنها أمام هول المشهد لم تتماسك حتى اندفعت مستغيثة الى أن بلغت مرتفعا شاهقا ومن هناك ألقت بنفسها احتجاجا على الواقع المر وظنا منها أنها افتقدت مَن تحب والذي رأته جثة هامدة تحت الحوافر الهمجية. ولما فصلت الدورية تاركة وراءها جثة هامدة بعثت الأقدار أحد المورسكيين الثوار لتلك الجبال وهو ميلّيني (Mellini) كما يسميه الشاعران أڤيلار (Aguilar) وميندث دي باسكونثيلوس (Mendez de Vasconcelos) فضمه الى صدره ووجد فيه بقية روح ما تزال تعتلج بداخله فتعانقا ووعده بالثأر له إن عاجلا أو آجلا.

هكذا أعطى كل من الشاعرين المذكورين سلفا. لظروف الترحيل مثل هذه الشحنات الملحمية إيمانا منهما بخطورة الموقف الذي لم يشهد تاريخ الانسانية مثيلا له.

فوقف القائد المورسكي معبرا عن فظاعة المشهد في خطبة حماسية مهيجة هزَّ بها اريحية رفاقه فذكرهم خلالها بالوطن والأرض التي ليس لهم سواها كما لفت انتباههم الى ما ينتظرهم بعد الترحيل من سوء استقبال وتشرد مدللا على ذلك بالعديد من الرسائل المستغيثة التي وصلته من دار الاسلام بالمغرب العربي الاسلامي فكان تجاوب القوم لصيحاته جماعيا، وكان الاجماع هو المقاومة ومجابهة العدو مهما كلفهم ذلك، فكان تاريخ 25 أكتوبر من عام 1609 هو موعد اللقاء لكل سكان العديد من القرى والمداشر فتجمع شملهم وأعلنوا العصيان.

ومما يلفت الانتباه ونحن نقلب ونتمعن في فحوى الملحمتين الشهيرتين أنهما بالاضافة الى اتفاقهما في سرد الأحداث فانهما رافقا مجرياتها كما لو أنهما يوميات لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا واستنطقتها وأوضحتها. ويظهر أن مجمل المطاف لتلك الثورة قد تمحور في العناصر التالية :

---

(6) انظر ملحمة — G. Aguilar : **Expulsión...** pp. 54 - 55

— الموقف التمردي المعلن من قبل الموريسكيين كخيار لا بديل عنه
— ردود الفعل المسيحية السياسية منها والدينية.
— المواجهة بين الطائفتين المتنازعتين
— خلاصة المعركة.

أما الفعل التمردي للمجاهدين الموريسكيين فانه اعتمد الأسس الآتية حسب رأينا حيث باشر التمرد بالمجاهرة بالعصيان العلني للأوامر الملكية؛

— ثانيا التزام تنظيم خاص للمجاهدين في المقاومة.
— أما الموقف الثالث فإنه ينجلي في الموقف ذاته حيث يأتي كتعبير عن قناعات ذاتية لا خيار معها.

لكن تفاصيل كل ذلك نجدها تتم كالتالي : فالموقف الأول تمثل في توجه المجاهدين للاعتصام بجبال لاغوار (Laguar) بدل النزوح مع بقية رفاقهم الى الموانىء حتى يتم ترحيلهم ومن هناك نجد المصادر تذكر قرابة عشرين الف موريسكي ما بين رجال ونساء وأطفال قد تجمعوا(7).

وبهذا التجمع الهائل أصبح من الضروري إيجاد طريقة لتنظيم عملية المقاومة الشعبية ومما لا شك فيه أن الظرف أصبح يلح كذلك على اختيار من يتولى زعامة هذه المهمة الخطيرة فكان الاجماع بدون أي تحفظ على الثائر ميلّيني ذلك الشاب المتحمس لمصير أتباعه، وفور الاجماع تحول زمام مصيرهم بيديه فصار قائدهم وأميرهم، وإن كانت الملاحم الشعرية ما تنفك تنعته بلقب الملك لكنه تجاوز منهم لتفخيم الموقف.

فاستعد هذا القائد المجاهد من توّه وشرع في تنظيم صفوفه تنظيما محكما مفتتحا بتقسيم أتباعه الى مواقع دفاعية حصينة تحت إمرة قادة

---

(7) انظر ملحمة — G. Aguilar : **expulsion...** p. 66

وكذلك Damián Fonseca **Justa expulsion de los Moriscos de España con la instrucción apostasia y Traycion dellos y respuesta a las dudas que se ofrecieron acerca desta materia**, Roma 1612, p. 291.

وكذلك J. Bleda : **Crónica de los Moros**. p. 109

انتخبهم بنفسه وبعدها شرع في عملية تجهيز المواقع بما يلزم من ذخيرة حربية ومؤن مع تنصيبه للعديد من المحارس أو الطلائع لمراقبة تحركات العدو عن كثب، مع اقراره لخطة هجومية تعتمد المباغتة والكمائن وهو ما يسمى بلغة العصر «بحرب العصابات». فعادت عليهم هذه الخطط بانتصارات متتالية تمكنوا خلالها من غنم العديد من الأسلحة والمؤن الأمر الذي جعل خطرهم يستفحل يوما بعد يوم ويتحول الى مهدّد حقيقي لأمن المملكة كما زاد من بُغض وحِنق العامة والخاصة عليهم وخاصة ما كانت تذيعه الكنيسة في الأوساط لتشويه جوهر المقاومة وتحريض الناس على استئصالها لأنهم أعداء للدين وللسلطة. فسمموا بهذه الدعايات المغرضة المتتالية كل الأجواء حتى أوقدوا نار الحقد المطالبة بالانتقام، والضاغطة على السلطة كي تشرع في عملية الابادة لهذه الطائفة الأمر الذي دفع بالمملكة الى تجنيد كل ما لديها من طاقات لاخماد هذه المقاومة فاستدعت قواتها المرابطة في الاماكن المتعددة وفتحت سجلات للمتطوعين من المتعصبين الحانقين وكان على هذه القوات الهائلة ان تزحف صوب الهدف مباشرة فتوجهت الى المنطقة الجبلية أين تحصنت المقاومة وحاصرتها من جميع الجهات الاستراتيجية فاصلة بينها وبين الخارج بجدار من الفيالق والمتطوعة، وبعد مناوشات عمدت القوات الملكية الى ارسال رسول كمفاوض باسم الملك فتوجه الى قاعدة المجاهدين الموركسيين وطرح عليهم الأمر من وجهات أربع حسب اجماع المصادر :

ــ الأولى : انه مبعوث خاص وناطق رسمي باسم الملك، والملك هو الآمر والناهي وأوامره يجب أن تسري على جميع رعايا المملكة بما فيهم الموركسيين، وعصيان أوامره يعني خرقا لموجبات الطاعة تستوجب العقاب الأقصى.

ــ الثانية : أشعرهم بقلة عدّتهم وعددهم أمام ما ينتظرهم من قوات مصرّة على اكتساحهم واستئصالهم.

ــ الثالثة : حذّرهم من مغبة الدخول في المواجهة التي من دون ريب ستسفر عن مجزرة رهيبة.

ـــ الرابعة : خيّرهم كأحسن وسيلة لضمان الحياة هو الاستسلام والقبول بقانون الترحيل والشروع في الاستجابة الى تنفيذه من توّهم.

لكن الرد الصارم وغير المنتظر من طرف المبعوث الرسمي فانه جاءه على لسان قائد المجاهدين حيث كان الرفض المطلق لكل تهديدات الرسول جملة وتفصيلا ومعلنا له بأنهم في أرضهم ووطنهم ومن حقهم الدفاع عن كيانهم وشرفهم، واذا كانت قوات الملك لا حصر لها فإن في رجال المقاومة من الشجاعة والاقدام ما يجعلهم يستهينون بكل ما تملك هذه القوات من عدد وعتاد وأنهم لا يخشون عاقبة المواجهة حتى ولو أبادتهم(8).

وبعد هذا الرد الذي أجمعت مختلف المصادر على صحته نجد الشاعر منديث دي باسكونثيلوس ينفرد بخبر مفاده أن المورسكيين أقدموا على خرق شرعية وجوب ضمان أمن المفاوضين ففي روايته الشعرية يذكر أن المورسكيين بعد ردهم الرافض أجهزوا على مبعوث الملك لكن المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث كتلك التي اعتنى بتسجيلها مؤرخ البلاط الملكي الرسمي أنطونيُو كورّال دي رُوخاس (Antonio Corral de Rojos) أو المؤرخين فُونسيكا (Fonseca) وبليدا (Bleda) فانها لم تذكر شيئا من هذا .

واستمرت المفاوضات بين الطرفين أيّاما عديدة أسفرت عن مطلب أساسي من طرف المورسكيين ينصُّ على القبول بقرار التَّرحيل لكن بشرط أن يؤجّل إلى ما بعد جني المحاصيل والتخلّص من المبيعات وتصفية كل حساباتهم.

إلاَّ أنّ المعْنِيين بشؤون الأمن من عسكريين وأعضاء في الحكم وكذلك رجال الدين فإنّهم فسّروا هذه الرّغبة بأنها تخفي وراءها أهدافا مبيّتة من قبل المورسكيين وذلك كانتظارهم لمدَدٍ من الأتراك العثمانيين بشمال افريقيا ، أو تنظيم شؤونهم الدفاعية أو مناورة لربح

(8) انظر ملحمة — G. Aguilar : **Expulsion..** pp. 78-81.

الوقت لا غير . لذا جاء الردّ المسيحي بالرفض المطلق لأيّ مهلة يمكن أن تمنح للمورسكيين ، وبعد هذا الأمر الواقع انطلقت المواجهة واستمر الموريسكيون في تنفيذ خطّتهم الحربية التي تعتمد المباغتة والكمائن والتي غالبا ما تتم آناء الليل حتى تضمن لهم نصرا خاطفا ، وقلّة في الضحايا ، لكن المصادر التاريخية والملحمية أجمعت على أن تاريخ 21 نوفمبر من عام 1609 كان بمثابة اليوم الفاصل بين الطائفتين حيث لم يعدْ هناك مجال للمناوشات وساعتها فسح ميدان المعركة الحقيقية التي أسفرت عن مجزرة رهيبة لم تشهد الأحداث التاريخية مثيلا لها آنذاك . حيث سقط على إثرها الأمير القائد ميلّيني شهيدا وثلاثة آلاف من أتباعه المجاهدين بعد أن تعاهدوا على رفض مبدإ الاستسلام .

أمَّا ما يلفت الانتباه في هذه المجزرة الشرسة كما تذكر الملاحم وهي أنّها كانت تتّسم بسمة عدم الرّحمة فاكتسحت في طريقها الطفلَ البريء والشيخ العاجز والمرأة المجرّدة من السلاح ، فقد زُرع الموت كما تُزرع الأعشاب وامتزج التراب بالجثث المتراكمة كما صوّرت الملاحم ذلك بدقّة متناهية ، وكذلك الحوليات التاريخية. أمّا البقية المتشرْذِمة والمتشرّدة فإنها ما فتئت أن استسلمت في 28 من شهر نوفمبر من عام 1609. وقد كان وصف حال هذه البقية المتبقية من المجاهدين من طرف المؤرخين على درجة عالية من المأساوية حيث انهارت قواهم جوعا وعطشا وجراحا فقد تساقط معظمهم على امتداد الطريق والأدهى والأمر من كل هذا كما يذكر رُوخاس (Rojas) أن عددا كبيرا من المورسكيين وجدوا أنفسهم مجبرين على بيع أبنائهم حتى لا يكونوا فريسة القتل أو يموتوا جوعا أمامهم».

أما عملية ترحيل هؤلاء المسحوقين فقد تمت ابتداء من 4 الى غاية 27 من شهر ديسمبر أي في عزّ الشتاء الشاتي وليس على متن السفن الملكية هذه المرة بل على متن سفن تجارية لبعض الخواص من قُرصان

وتجار الرقيق وناهيك بسوء المعاملة والتعذيب التي أضيفت الى محنة هؤلاء المنكوبين وقد كان لشدة الاحتياج الذي كان يعانيه هؤلاء المنهزمون المرحلون ما أدى بالسلطة الملكية الى دفع أجر الترحيل كأقصى ما يمكن أن تمنحهم من مساعدة وذلك للتخلص منهم مهما كلفها الثمن.

خلاصة لنتائج المقاومتين

اذا أردنا أن نعقد مقاربة بسيطة بين نتاج الثورتين فاننا نجد هذه الأخيرة التي اشتعلت في جبال لاغوار (Laguar) كانت نتائجها جد مأساوية بالنسبة لمصير المورسكيين حيث فقدوا على اثرها كل شيء المال والأرواح، فما إن انفرجت نار الحرب حتى بقي منهم ثلاثة عشر ألفا ومائتا نفر (13.200) رحلوا من موانىء دانية وشابيي حسب رأي المؤرخ لابيري (H. Lapeyre)، وكما رأينا أن الذين سقطوا في ميدان المعركة كان عددهم ثلاثة آلاف مجاهد أما الفارق الهائل من المفقودين فقد لقي حتفه نتيجة العذاب والتشرد وانتظار رحلة المجهول.

وقد أطنبت المصادر أيما إطناب في وصف أهوال المعارك والأسباب التي أدت بالمورسكيين الى افتقاد كل شيء؛ فكل ما كانوا يملكونه من مؤن تقول المصادر أنه زرع في ساحات القتال واختلط بدماء وجثث الأموات وبلغت درجة شراسة العدوان أن جعلت جنود النصارى يسطون على الجثث الهامدة للنساء ويحرقونها، وينتزعون ما عليها من حلي ويقتلعون الآذان ويبقرون البطون ظنا منهم أنها تخبىء ذهبا أو أشياء ثمينة.

إنها مجازر لا أقول فريدة من نوعها بل إنها تربصات في التمرس على أساليب الابادة مهدت سبيل استغلال مثل هذه التجارب مع شعوب أخرى كان خير شاهد على امتدادها واعتمادها ما حدث في القارة الجديدة قارة واد الذهب ومأساة الهنود هناك.

لقد كان هذا الانتصار المأسوي بالنسبة للصليبية الحاقدة انتصارا ذا حدين : انتصارا عسكريا وانتصارا مسيحيا على الاسلام، انها الذكرى

الغالية بالنسبة لهم التي بامكانها محو اثار معركة لكّة بقيادة طارق بن زياد أو الزلّاقة بإمرة يوسف بن تاشفين على ألفونس السادس.

ومن كل ما سبق ذكره تبقى المقاومتان الشهيرتان لموريسكيي منطقة بلنسية هي آخر نفس يلفظه المسلمون بأرض الأندلس وحسب احصائيات الباحث الفرنسي لابيري (H. Lapeyre) أن عدد المرحلين الأخيرين بعد هذه الأحداث الدامية كان مجموعه (116.022) موريسكي التحقوا بشمال افريقيا مخلفين وراءهم جوا بهيجا من الاحتفالات المسيحية التي دامت أياما وليال تحت شعار «تحرير بلنسية» الذي عمَّ كامل أرجاء المنطقة. واستمرت الاحتفالات كما تذكر المصادر الى غاية شهر فبراير من عام 1610 وهي الاحتفالات التي ما تزال تجدد كل سنة الى يومنا هذا.

وبعد هذا كله تبقى منطقة بلنسية بحكم موقعها الجغرافي كسجل حافل بمثل هذه الأحداث التي أسفرت عن أعنف المقاومات التي تشبث فيها الموريسكيون بأرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم لكن الحتمية التاريخية وقفت ضد إراداتهم العزلاء. لذا كان صدى باقي النواحي في ميدان المقاومة عبارة عن حركات تمردية تجرع على اثرها الموريسكيون الهزائم دون أن يسجل فيها ما سجل في صفحات مقاومة بلنسية من مواقف مثيرة وبإرادات ثابتة وامكانات محدودة من العدة والعدد لكنها كانت عامرة بالايمان الصادق والتشبث ببقايا الأجداث، بقايا السراب الذي يحسبه الظمآن ماء...!

الفصل الرابع

- نهاية مأساة الموريسكيين في باقي المقاطعات الأخرى
- مجريات طرد الموريسكيين من مقاطعتي كاطالونيا وأراڤون
- كيف كان رد الفعل عند الموريسكيين المرحّلين

نهاية مأساة الموريسكيين في باقي المقاطعات الأخرى

على اثر انهزام ثورتي جبال لاغُوار ومُويلا دي كورتيس غُلِّقت أبواب المنفى والترحيل الاجباري بالنسبة للأقليات الموريسكية وانتهت معها عملية التصفيات والابادة الجماعية التي أشرف على تنفيذها رجال الكنيسة والملوك منذ استسلام غرناطة بني الأحمر عَام 1492، وقد سجل الشاعر الملحمي أقيلار (Aguilar) آخر أحداث الترحيل التي عرفتها مقاطعة بلنسية (Valencia) المجاهدة قائلا بأسلوب الجزم والقطع :

... لقد بقيت المملكة عارية من كل موريسكي
ومن بين الذين غادروها وأُخرجوا منها
مائة وثلاثون ألفا تعاقبوا دُون رَيْب[1].

وبعد هذا الجلاء الذي تابعت وقائعه المأساوية الملاحم الثلاث؛ نجد ملحمة الشاعر أقيلار تتوقف لتسرد علينا بقية المراحل القاسية التي كانت تنتظر أقليات الموريسكيين الموجودين بمقاطعات أُخرى كمُرسية وغرناطة وأراغُون وكطالونيا وقشتالة وبطليوس وغيرها من البقاع الأخرى.

فهذه المقاطعات الآنفة الذكر كانت تتابع عن كثب ما كان يجري

---

(1) انظر ملحمة — G. Aguilar : **Expulsión...** p. 169

في حين نجد احصائيات الباحث الفرنسي لابيري (H. Lapeyre) تذكر لنا مجموع 116.022 المرحلين الأواخر من مقاطعة بلنسية. انظر كتابه : جغرافية، ص 62.

من إبادة ومجازر ومتابعات وتصفيات في بلنسية المقاومة، وكانت تتأثر هي الأخرى بمجريات تلك الأحداث الجسام التي يُعاني مرارتها إخوانهم في العقيدة فما كان منهم سوى أن تهافتوا على الأسواق بكل ما يمتلكون من غال ونفيس مسارعين الى التخلص منه بأبخس الأثمان مما هزَّ وأربك انتظام القدرات الشرائية في الأسواق وأغرقها في مزادات علنية منخفضة العرض وهذا على الرغم من خروج عشرين ألف نسمة فارّين قبل صدور قرار الترحيل الأمر الذي دفع بالملك الى اصدار مرسوم ملكي شديد اللهجة يحرّم بموجبه على المورسكيين مواصلة بيع ممتلكاتهم ويحرّم على المسيحيين شراءها مهما كان ثمنها زهيدا وذلك في 14 من شهر نوفمبر من عام 1609، كما حذّر هذا القرار كل الذين تسول لهم أنفسهم المخالفة وهددهم باغتصاب ممتلكاتهم لو حاول أحدهم مخالفة نص القرار، كما عقب القرار ولعله من منطلق التمويه، قائلا أن قرار الترحيل الصادر في حق المتمردين بمقاطعة بلنسية لا يعني باقي المقاطعات الأخرى وذلك ربما تحسبا لأي انتفاضة محتملة قد ينهض بها المورسكيون فيعسر على القوات الملكية ساعتها إخمادها والسيطرة عليها وخاصة أن أوار المقاومة بمقاطعة بلنسية ما يزال على أشده وكل القوات الملكية كما ذكرنا في الفصل المخصص لها مرابطة هناك وفي اشتباكات متواصلة قصد استئصال الثورة قبل استفحال أمرها بشتى أنواع الوسائل حتى تضمن المملكة إقرار الأمان في مقاطعات المملكة الأخرى.

لكن على اثر تحكم القوات الملكية في الوضع وتمكنها من تطويق المقاومة لم يتردد الملك فيليب الثالث من إصدار قراره القاضي بتهجير المورسكيين من مختلف مقاطعات المملكة مهما كان عددهم، فكان 9 من شهر ديسمبر من عام 1609 هو موعد صدور القرار المُمْهُورِ بختم الملك وعلى اعقابه اعطيت التعليمات لمختلف حكام المقاطعات كي ينشر ويبلغ وذلك ابتداء من 12 من شهر جانفي 1610.[2] فانطلقت هذه العملية من مدينة اشبيلية وعين على رأس من سيشرف على تنفيذ

(2) انظر — Boronat : **Los Moriscos Espagñoles.** T. 2 p. 281

عملية الترحيل أحد النبلاء المعروفين بعراقة أرُومتِهم المسيحية وقِدم عدَاوتهم لما هو غير مسيحي فكان «خوان دي مندوثا ماركيز سان خِرْمان»، هو فارسها الموعود، ومن اشبيلية انطلقت طلائع هذا القائد ليزحف بها على باقي المقاطعات قصد اخلائها من المورسكيين ومخلفاتهم وحملهم على الرحيل الاجباري بحد السيف، كل هذا ورد ذكره في ثنايا المقطوعات الثمان التي خصها الشاعر أڤيلار لأحداث التهجير هذه.

أما المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث تقريبا فإنها أكدت بدورها تاريخ القرار؛ لكن يبقى الشاعر أڤيلار متفردا ببعض التسجيلات الخاصة بمُجريات أحداث الترحيل، ومصير المورسكيين والدوافع والأسباب الرامية إلى الاسراع بتنفيذ القرار وكذلك الشروط المقترحة على المهجرين مع تحديد مدة الجَلاء، وكذا مصير ممتلكاتهم ثم ختمها بتسجيل مواقف المورسكيين من كل ذلك وكيف كانت ردود الفعل المسجلة من كلا الطائفتين المورسكية المسلمة والمسيحية المتعصبة.

واذا نحن اعتمدنا ملحمة الشاعر أڤيلار وتتبعنا معـها خيط الأحداث نجدها توحي بأن قرار الملك قد تزامن ظهوره في كل المقاطعات المأهولة بالمورسكيين والمعنية مباشرة بأمر الترحيل. أما الأسباب فإنها ذاتها التي سبق أن وجهت الى المورسكيين من قبلُ ببلنسية حيث ألبسوا تهمة «الخيانة العظمى». أي عداوة الايمان المقدس، الذي يتجلى في الأب الأكبر والابن وروح القدس، مع اتهامهم بعدم الانصياع الى الأوصياء على دين المسيح من قساوسة ورهبان وكنيسة وكذلك ظله الممدود على الرعية والمجسد في شخص الملك المبارك من طرف الأوصياء، وهي مجموعة من التهم التقليدية التي تؤكدها أيضا المصادر التاريخية ويتفق هنا كل من الشاعر أڤيلار والمؤرخ بروناط. (Boronat) في تحديد مدة التأهب المعطاة للمورسكيين حتى يجمعوا أمورهم ويتحركوا في اتجاه الموانىء المعدة لاستقبالهم وذلك في بحر شهر[3]؛

---

(3) انظر — Boronat : **Los Moriscos Espagñoles**, T. 2 pp, 281-282
وملحمة — G. Aguilar **Expulsion...** **p. 172**

لكن خُوان منذُوثا نجده يقصّر هذه المدة الى عشرين يوما.

أما فيما يتعلق بالممتلكات فقد منح القرار الموريسكيين إمكانية أخذها أو بيعها لكن دون مقابل من فضة أو ذهب، كما حدّد القرار مع ذلك ضرورة دفع الإتاوات من ضرائب جمركية تؤدى على كل المحمولات.

وقد أبرز القرار هذه المرونة الملحوظة اذا ما قورنت بما صدر في مقاطعة بلنسية كَهِبة أو رحمةمُزجاةمن طرف الملك، ليسهل بها عملية الخروج دون مقاومة.

لكن ماذا عن الموريسكيين، وكيف جاء ردهم على كل هذه القرارات الملكية؟ لقد جاءت ردود الفعل في مجملها سلبية نتيجة الرعب الذي تسرب إليهم نتيجة لما حصل مع اخوانهم في مقاطعة بلنسية فاستجابوا جماعيا لداعي القرار وسارعوا الى تنفيذه قبل أوانه، فحشدوا حمولتهم في الموانىء وتراكموا منتظرين فرصة الرحيل وكأني بهم يخشون مغبة تراجع الملك بقرارات مضادة ومباغتة قد تحرمهم من مِنّة الملك التي لم يحظ بمثلها سكان مقاطعة بلنسية، فالاستجابة المبكرة جاءت بمثابة اغتنام الفرصة قبل أوانها. وقد فصَّل الشاعر أفيلار القول أيما تفصيل في تصوير مُجريات الترحيل انطلاقا من ضِفاف الوادي الكبير الى غاية المرافىء البحرية حيث كانت الحشود الهائلة التي تشيع المطرودين وهم يلهجون بالملاحن الحزينة التي كانت تعزفها فرقهم فكان بعضهم كما يقول الشاعر أفيلار تقرأ على وجهه أمارات الفرحة والبهجة وآخرون تلحظ على سِماتهم ملامح الحزن الدّفين والألم المبرح بالأحشاء فتراهم متثاقلين في رواحهم، إلا أن البعض الآخر فانه ما فتىء يُعرب عن أشجانه بترديد القسم المعظم أنهم لا محالة راجعون بمعونة الديّان مهما كلفهم الثمن من التضحية.

... وآخرون
يلهجون بصوت من التهديد الغاضب

أنه اذا أسعفهم القدر الأزلي
سيعودون مرة ثانية الى اسبانيا(4)

مثل هذه المشاهد التي خلدتها ريشة الشاعر الملحمي أڤيلار بوهج درامي مفعم بالحيوية والحياة لا نجد مثيلا له في المصادر التاريخية التي غلب عليها طابع الانقباض والاقتصاد في رصد الأحداث وسردها وكأني بها كانت موكولة بالتوثيق الرسمي الذي لا يأبه لأهمية المشاهد الدرامية مهما كان مفعولها، وفي المقابل نجد مقطوعات الشاعر المسخرة لرصد أحداث الترحيل تصر على مرافقة قوافل المهجرين حتى تشيعهم الى ديار الغربة فتقف بالقارىء عند الصغيرة والكبيرة، وتطلعه على ظروف الجماعات الغنية والفقيرة، وتعتني برسم الفوارق والمظاهر المؤثرة، وتدقق في رسم الطرقات التي يقطعها التسيار الطويل للمعذبين.

فملحمة أڤيلار شيعت طُرداء الأندلس من ضفاف الواد الكبير جنوبا في اتجاه مرفإ قادس (Cadiz) وشرقا في اتجاه مراسي قرطجنة ومالقة وجبل طارق.

كما رصدت ملحمة أڤيلار ذاك التباين الطبقي الاجتماعي الذي يميز بين طائفة المورسكيين كفيئات متنوعة اجتماعية من حِرَفيين وصنائعيين، وأغنياء وميسورين وفقراء ومعدمين وهلم جرا، بل تنبهت هذه الملحمة حتى الى ما كان يحف بعض الأشخاص وهم وسط التجمعات الهائلة من حفاوة وأبهة ووقار وتقدير من طرف الأتباع، وربما كان الأمر يتعلق ببعض رجالات الدين الموفوري جانب الاحترام من قبل الرعية لأنهم رمز بقائهم وأصالتهم، كما رسمت هذه الملحمة بشيء من التركيز حالة الفقراء والمعدمين وهم يذْرعون الأرض راجلين لا يحملون من متاع الدنيا سوى بعض الحمولة المتواضعة والمتهدّلة على ظهورهم، ويختم الشاعر بعد هذا الوصف كلامه عن وسائل الترحيل التي كانت سفنا وقوارب وزوارق من

(4) انظر ملحمة — G. Aguilar **Expulsión**... p. 172

ممتلكات الخواص وهذا عكس ما تم في مقاطعة بلنسية كما رأينا حيث تولى الأسطول البحري الملكي عملية الترحيل.

مُجريات طرد الموركسيين من مقاطعتي كاطالونيا وأراغُون

نستطيع التأكيد أن مصير الموركسيين في أي مقاطعة كان نجده قد تأثر تأثرا بكل ما حدث في مقاطعة بلنسية، التي عرفت المشادَّات العنيفة والتي أودت بالموركسيين الثائرين الى مصير دموي رهيب الأمر الذي ترك من الأثر في باقي المقاطعات الأخرى ما جعلها تنام وتستيقظ على صفارات الانذار المنبئة بالأخبار المشؤومة مما دفع بالموركسيين في هذه المقاطعات المختلفة الى الاسراع في التأهب، ومحاولة التخلص من كل ما هو في حوزتهم في أسرع وقت وبأبخس الأثمان. فمقاطعة كطالونيا وأراغون بالرغم من وجود مجموعات موركسية بها في وضعية ميسورة؛ حيث كانت تمتلك بعض الأراضي الزراعية، والصنائع الحرفية، وتستخدم للقيام بها العديد من العائلات الموركسية الفقيرة، فإن ما حصل في مقاطعة بلنسية دفع بهذه العائلات الميسورة أن تحجم عن مواصلة زراعة أراضيها، أو جني منتوجها أو قطف ثمارها، لأن القرار الملكي القاضي بالترحيل قد داهمها في أخريات شهر أكتوبر من عام 1609، وظهر ممهورا بختم الملك في 17 من شهر أفريل عام 1610 وذلك من عاصمة المملكة آنذاك بلد الوليد (Valladolid) ونُشر فحواه في مدينة سرقسطة عاصمة أراغون بالثغر الأعلى في 29 من شهر ماي عام 1610.

لكن هذا القرار نجده يُستقبل باستنكار شديد من طرف الموركسيين والمسيحيين على حد سواء وذلك للأسباب ذاتها التي طُرحت في مقاطعة بلنسية اذ كان للخوف من انهيار الوضع الاقتصادي ما حفز أمثال هؤلاء المحتجين على مفاتحة الملك في ضرورة التريُّث حتى لا يتسبب الأمر في الاخلال بالتوازن الاجتماعي والاقتصادي للمقاطعة.

لكن رغم هذه الاجراءات الوقائية فان الموركسيين كما تقول المصادر التاريخية «سارعوا الى بيع ممتلكاتهم من أثاث منزلي، الى مجوهرات

بأبخس الأثمان، كما رفعوا أيديهم على مواصلة حرث وزرع الأرض»[5].

أما المسيحيون المتعصبون الذين كانوا يتحينون مثل هذه الفرص فانهم سارعوا بدورهم للاستفادة من هذا الوضع غير الطبيعي فصبوا جام حقدهم على المورسكيين وتمادوا في إهانتهم والاستحواذ على مبيعاتهم وممتلكاتهم بقوة السلب والنهب، وارغامهم على دفع الاتاوات الجبائية والضرائب المفروضة قبل أوانها ممّا أجبر حاكم مقاطعة أراغون على رفع دعوى ضدهم الى الملك يترجاه فيها الى الغاء قرار التهجير حفاظا على أمن المقاطعة، ويطلب منه أن يصدر قرارات تعاقب المتجاوزين من المسيحيين على تصرفاتهم العدائية ضد المورسكيين[6]. وقد أكّد ما تقدم به حاكم مقاطعة أراغون السِّفارةُ التي شكلت من بعض النبلاء الاقطاعيين أمثال الكُوند دي لُونَا (El Conde de Luna) والحكيم كَارِّيُو (Dr. Carrillo) وغيرهم؛ وتقدموا الى جلالة الملك «بكشف يوضح الأضرار الناجمة عن القرار الملكي القاضي بالتهجير»[7]... حيث تقول هذه المصادر[8] التاريخية السابقة الذكر أن السِّفارة وصلت الى مدريد فقدمت الى جلالته الشكوى الموضحة لأسباب الأخطار الممكن انتظارها من جراء قرار التهجير ومترجية من الملك ضرورة مراجعة قراره والسماح للمورسكيين بالمكوث... لكن هذه المحاولة الشبيهة بمحاولة نبلاء مقاطعة بلنسية نجدها لم تلقَ آذانا صاغية ولا استجابة مرجوة وذلك لعدة أسباب أسهبت المصادر التاريخية في ذكر أهمها والتي يأتي في مقدمتها التأثير القوي لدور محاكم التفتيش في مقاطعة أراغون والتي ما فتئت تلح على الملك وجوب اتخاذ مثل هذا القرار السامي والمبارك من طرف الكنيسة المقدسة، وعدم التراجع فيه حتى لا تحل اللعنة الالهية...

---

(5) انظر — J. Regla : **Estudios..** p. 86 - 87

وكذلك — J. Bleda : **Crónica de los Moros...** p. 1045 col. I

(6) انظر — J. Bleda : **Crónica de Los Moros...** p. 1045, col I

(7) انظر — Boronat : **Los Moriscos** , T2, p. 296

(8) انظر — J. Bleda : **Crónica de Los Moros...** Col, 1 p. 1046

بل يستحسن في رأيهم الشروع الفوري في تنفيذه وهذا كما جاء على لسان مبعوث المحاكم المذكورة الراهب ميقال سانتوس دِي سَان بِيدرُو (Miguel Santos de San Pedro) حيث أسند الى الموريسكيين أبشع الاتهامات وأخطرها والتي عادة ما يكون فحواها دينيا.

وبموجب هذه الاتهامات الخطيرة تقرر ارسال المراقبين للشروع الفوري في تنفيذ قرار الترحيل بمقاطعة أراغون (Aragon) وكان ذلك في 17 من شهر أفريل عام 1610 تحت قيادة البطل الأسطوري أقستين ميخيا (Agustin Méjía).

أما الشاعر أقيلار (Aguilar) فانه خصّص لهذا الحدث ثلاث عشرة مقطوعة (Octavas) المكوّنة من ثماني أبيات شعرية وتتمحور لتغطي المشاهد الآتية :

1) تصوير حضور المبعوث الملكي لتهيئة الظروف والاشراف على تنفيذ عملية الترحيل.

2) تصوير الخروج الجماعي لطوائف الموريسكيين في طريقهم الى المنفى الاجباري، وكما هو معروف فان القائد أقستين ميخيا أصبح يتمتع بخبرة فريدة في ميدان الترحيل وذلك بحكم ممارسته لمثل هذه المهام من قبل وبخاصة في مقاطعة بلنسية فأسرع من توه الى تسييج المقاطعة عسكريا تحسبا لأي رد فعل مباغت كما فعل في مقاطعة بلنسية، مما أثلج صدور المسيحيين القدامى وأسكن الرعب في قلوب الموريسكيين الضعفاء.

أما حاكم المقاطعة فقد أوكل له دور التنسيق بين القائد ميخيا وجهاز محاكم التفتيش، كما اسندت له مهمة نشر القرار القاضي بحتمية الترحيل الاجباري والذي تضمن المحاور التالية :

— شرح الأسباب الدافعة لصدور قرار الترحيل
— الفسحة الزمنية المعطاة للموريسكيين قبل الشروع في تنفيذ القرار.

ـــ ما هو مسموح به للمورسكيين من متاع وغيره يحق لهم حمله.
ـــ نقطة التجمع قبل الترحيل.
ـــ تحديد مراسي الاقلاع في اتجاه طرقات المنفى.

أما أسباب التهجير كما جاءت على لسان الشاعر أڤيلار في ملحمته فهي ذاتها التي اتهم بها المورسكيون من قبل في مقاطعة بلنسية حيث ينصدرها الاتهام الديني ويأتي ليعاضده الأمن السياسي للمملكة.

أما الموعد الزمني فقد تحدّد بثلاثة أيام بعد نشر القرار اذ أمر بصريح القول أن على الجميع المثول الى نقاط الاقلاع مصحوبين بأبنائهم وأزواجهم. أما ممتلكاتهم فقد تسامح معهم القرار وخول لهم حمل ما يقدرون عليه، كما عين القرار مرسى طرطُوسا (Tortosa) كنقطة للانطلاق وبموجب ما سبق ذكره انطلقت أولى دفعات المورسكيين نحو المرسى المعين وذلك في اتجاهين : ركب كان طريقه النهر وركب سِيق برّا الى أن تم حشد الجميع في مرفإ ألفاكيس (Alfaques) وكان عددهم أربعين ألف نسمة ما بين شيوخ وشباب ونساء ورجال، ويذكر المؤرخ الفرنسي لابيري (Lapeyre) نقلا عن بليدا (Bleda) «أن خروج المورسكيين من مقاطعة كاطالونيا قد تزامن مع خروج اخوانهم من مقاطعة أراغُون حيث عُين لهم مرفأ (Alfaques) كنقطة للاقلاع لأن وادي ابْرَا يُسَهّل عملية وصول المهجرين الى المرفأ المذكور، وأما قرار التهجير فقد نشر ببرشلونة في 29 من شهر ماي عام **1610** وهو اليوم نفسه الذي تلي فيه بمدينة سرقُسطة عاصمة أراغون»(9).

ويظهر أن الأسباب التي أدت الى اتخاذ مثل هذه التدابير والترتيبات يعود جوهرها الى محاولة الخلاص من اتمام هذه العملية الشاقة في أقرب وقت وأنجع وسيلة وبأقل ضرر ممكن لأن ترحيل ستين ألف مهجر قد يستغرق زمنا طويلا لو اعتمد في تنفيذه نقطة واحدة للاقلاع، لكن رغم هذه الاجراءات الاستعجالية المحكمة الخطة فان العملية قد استغرقت الى

(9) انظر — H. Lapeyre : **Géographie...** p. 100

غاية منتصف شهر ديسمبر من عام 1610، أي لمدة خمسة أشهر فيقول المؤرخ بليدا (Bleda) «ان آخر المهجّرين من كاطالونيا وأراغون تم إقلاعهم في 18 من شهر ديسمبر من عام 1610»(10).

كيف كان رد فعل الموركسيين المرحَّلين؟

لقد أجمعت المصادر التاريخية القريبة العهد من الأحداث وكذلك الملاحم الشعرية المعاصرة لها ان كلا من مقاطعة أراغون وكطالونيا وأحوازهما لم يشهدوا أي مظهر من مظاهر العنف والمقاومة من قبل الموركسيين بل المسجل تاريخيا أن قرار التهجير قد استقبل بارتياح في أوساط الموركسيين وساهموا بالمساعدة في انجاح مجريات التنفيذ بتفهمهم العميق وتجاوبهم التام مع المشرفين على العملية مما أدى الى تجنب الصدام، فيذكر الشاعر أقيلار في احدى مقطوعات ملحمته :

... كل المملكة قد اهتزت وألزمت
بالاستجابة لأمر الملك
وبما أن الترحيل قد اسعدهم
الى درجة جلّ فيها المِلك كالعادل والقديس(11)

أما المؤرخ خُوان ريقلا (J. Regla) فإننا نجده يذكر وهو بصدد التعليق على تقرير حاكم مقاطعة أراغون المؤرخ بمدينة سرقُسطة في شهر ماي من عام 1610 والمرفوع الى جلالة الملك فيليب الثالث أين نقرأ أقواله التالية : «يُخيم كثير من الحذر لكن الموركسيين يخرجون وأمارات الرضى مرسومة على وجوههم»(12).

أمّا المؤرخ بليدا (Bleda) فإننا نجده يسجل بعض الاضافات الهامة حيث يذكر «أن الموركسيين الذين غادروا مقاطعة أراغون بدون أدنى مقاومة فإن انطلاقهم قد تم على دفعات تتكون الواحدة من ألفين أو

(10) انظر — J. Bleda ; **Crónica..** Col. 2 p. 1050

(11) انظر ملحمة — G. Aguilar : **Explusión**.. p. 180

(12) انظر — J. Regla : **Estudios..** p. 93

أربعة آلاف تحت قيادة محافظ أمني واحد دون حاجة الى مصاحبة حرس من الجيش». وهكذا تجمع المصادر على انعدام مظاهر العُنف والمقاومة بل تسجل بأحرف واضحة أن استجابة الموريسكيين لداعي الترحيل كانت بمثابة الأمل المرجّى الأمر الذي جعل تجمعاتهم الضخمة لا تحتاج الى حراسة مشددة أو طوارىء عسكرية كما هو الشأن بمقاطعة بلنسية، فكان خروجهم من أرضهم وديارهم خروج الذين لا يرجون شفاعة ولا رحمة من المسيحيين أو الملك، وقد انعكست أمارات فرحتهم الكبرى في ظهورهم بملابسهم العربية الاسلامية، وتخاطبهم فيما بينهم علانية باللغة العربية، ومناداتهم على بعضهم بأسمائهم العربية الحقيقية التي سُلبت منهم وذلك أمام أعين زَبَانية محاكم التفتيش، الذين كانوا يتلمّظون غيظا، وعلى مرأى ومسمع من المسيحيين المتعصبين الذين كانوا يتمنون الخلاص من حضورهم بين ظهرانيهم بشتى الوسائل. لقد سجلت المصادر الموثوق بصحتها أن أيام الترحيل بمسيراتها الطويلة كانت بمثابة الأعراس لأنها أذاقت الموريسكيين طعم الحرية، فسجل الشاعر أڤيلار كعادته ضمن مقطوعاته الثمان التي خصصها لرحلة العذاب أن الموريسكيين في ذلك اليوم قد تجلى مستواهم الاجتماعي فهناك الفقراء وهناك الأغنياء لكن ما جمع بين شتاتهم كملامح مشتركة أن جميعهم في انطلاقه كان يرتدي ثياب الحرير الفاخرة والكل كان على يقين من أنه سوف يُشاطر إخوانه النصيب المتوفر في رحلة المستقبل المجهولة القرار والنهاية.

وكخلاصة لهذا المطاف المأسوي لعملية التهجير الاجباري التي كُتبت على الموريسكيين كأجل مسمى نجد المطاف يعرف نهايته بخروج بقايا الشتات الموريسكي الموزع في مقاطعات قشتالة (Castilla) وبطليوس (Badajoz) ولامنتشا (La Mancha) وهي النقاط التي لم تتعرض لها بالذكر ملحمة أڤيلار إلّا أنها بحسب المصادر التاريخية كانت مصاقِبة للمقاطعات الاخرى وما تبقى من شتات الاسلام الأندلسي في شبه جزيرة ايبيرا بعد تاريخ 1612 الحاسم إلّا أقلية جد قليلة لا يتجاوز

عددها الالفين وخمسمائة نسمة من المورسكيين بسفح رقوطة أرض عالم الأندلس الشهير المعروف بالرقوطي الذي سيأتي ذكر محامده، وهي الأقلية المستثناة بقرار ملكي مؤرخ في 18 من شهر جانفي عام 1610 ولم يلغ سوى بقرار لاحق أرخ في 8 من شهر أكتوبر عام 1616 حيث تم بموجبه طرد هذه الأقلية، وهي التي حظيت في وقتنا المعاصر بالعديد من الدراسات المستفيضة من طرف بعض الدارسين كڤوادا لاخارا إي خابير (M. Guadalajara y Javier) ومعنى هذا الاسم هو (واد الحجارة).

الفصل الخامس

بعض الملامح من الثقافة الموريسكية

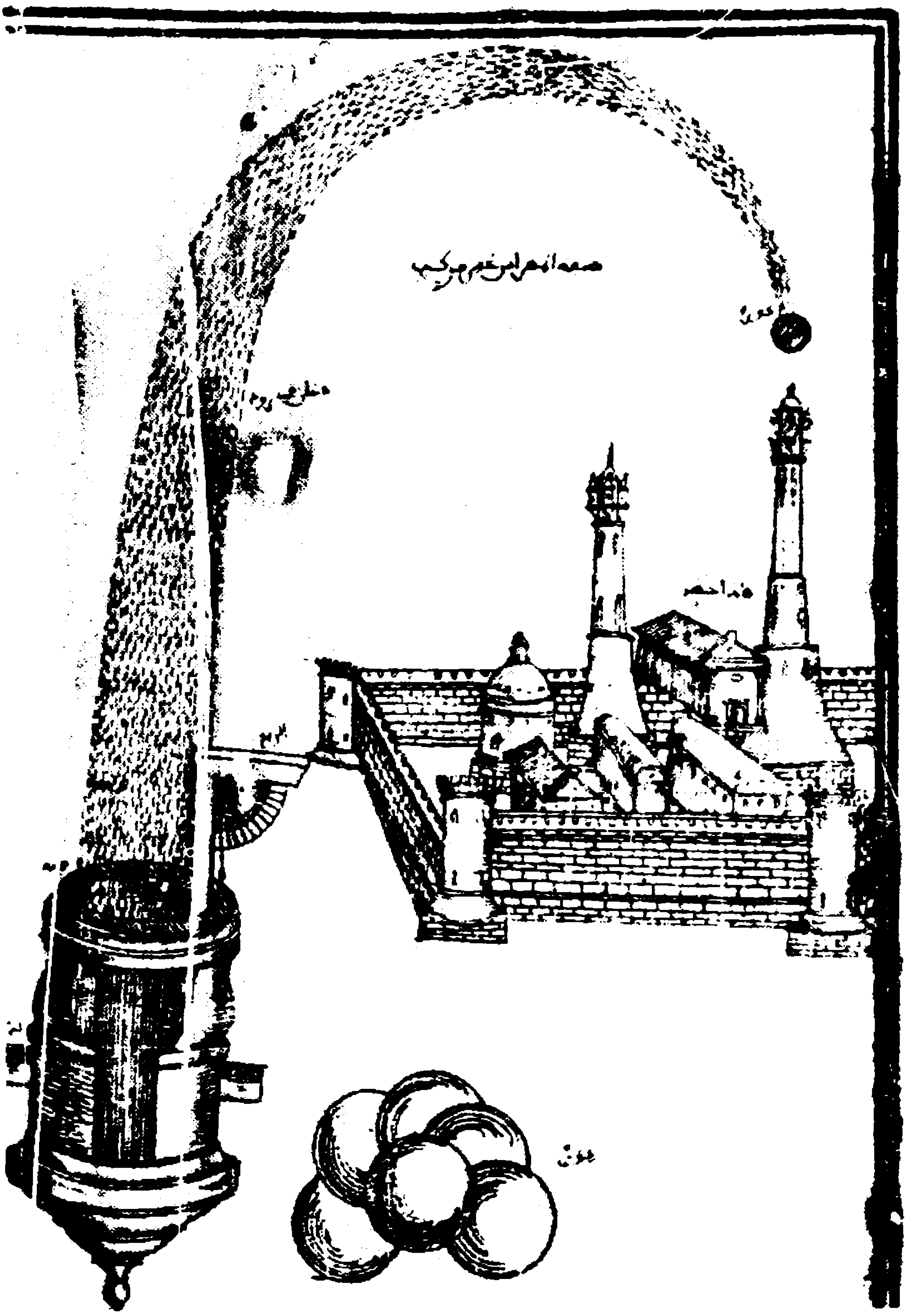
- الأهمية الأدبية للآثار الموريسكية
- «الألخميادو» كمظهر من مظاهر الثقافة الموريسكية
- الكتابات الموريسكية الدينية

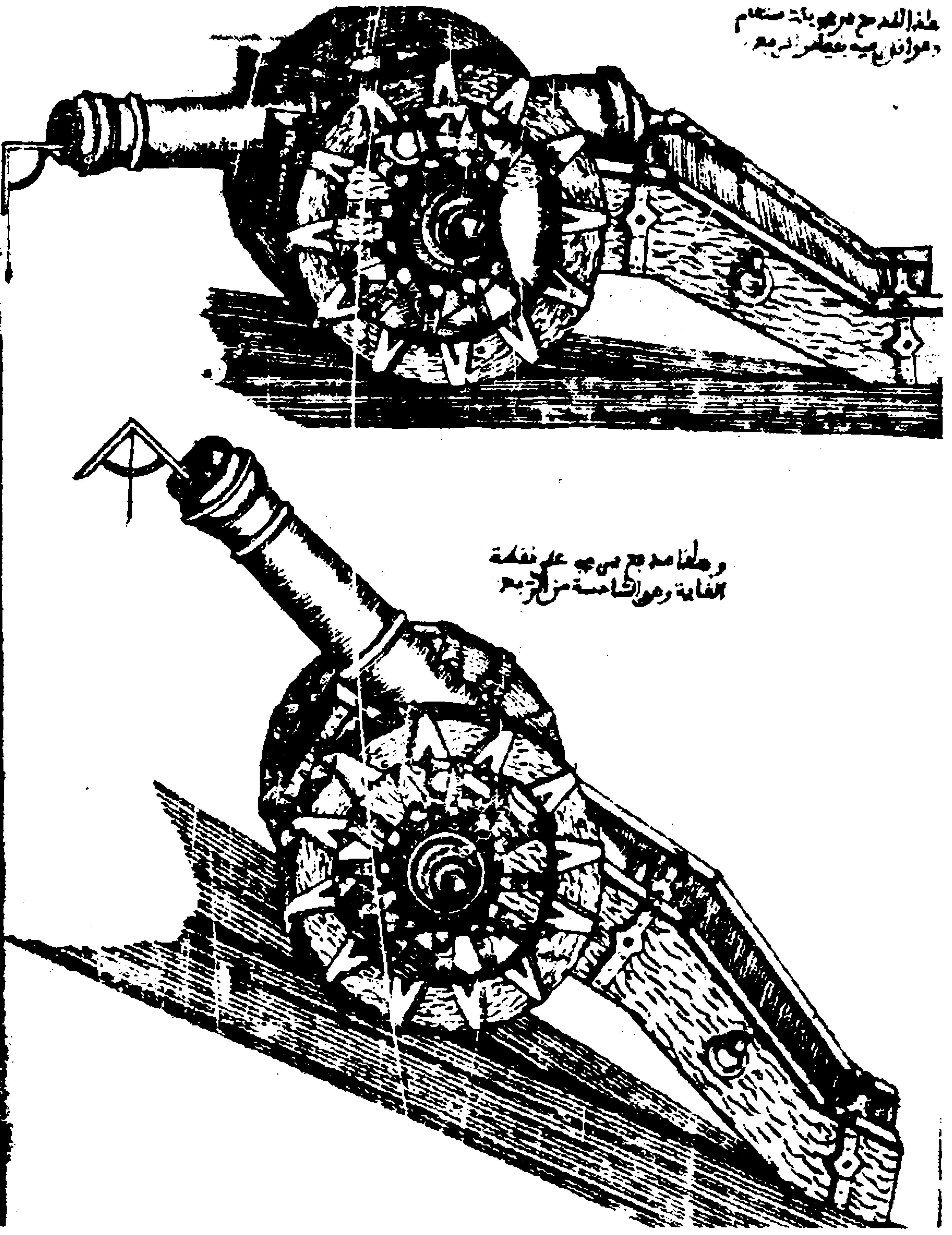
بعض الملامح من الثقافة الموريسكية

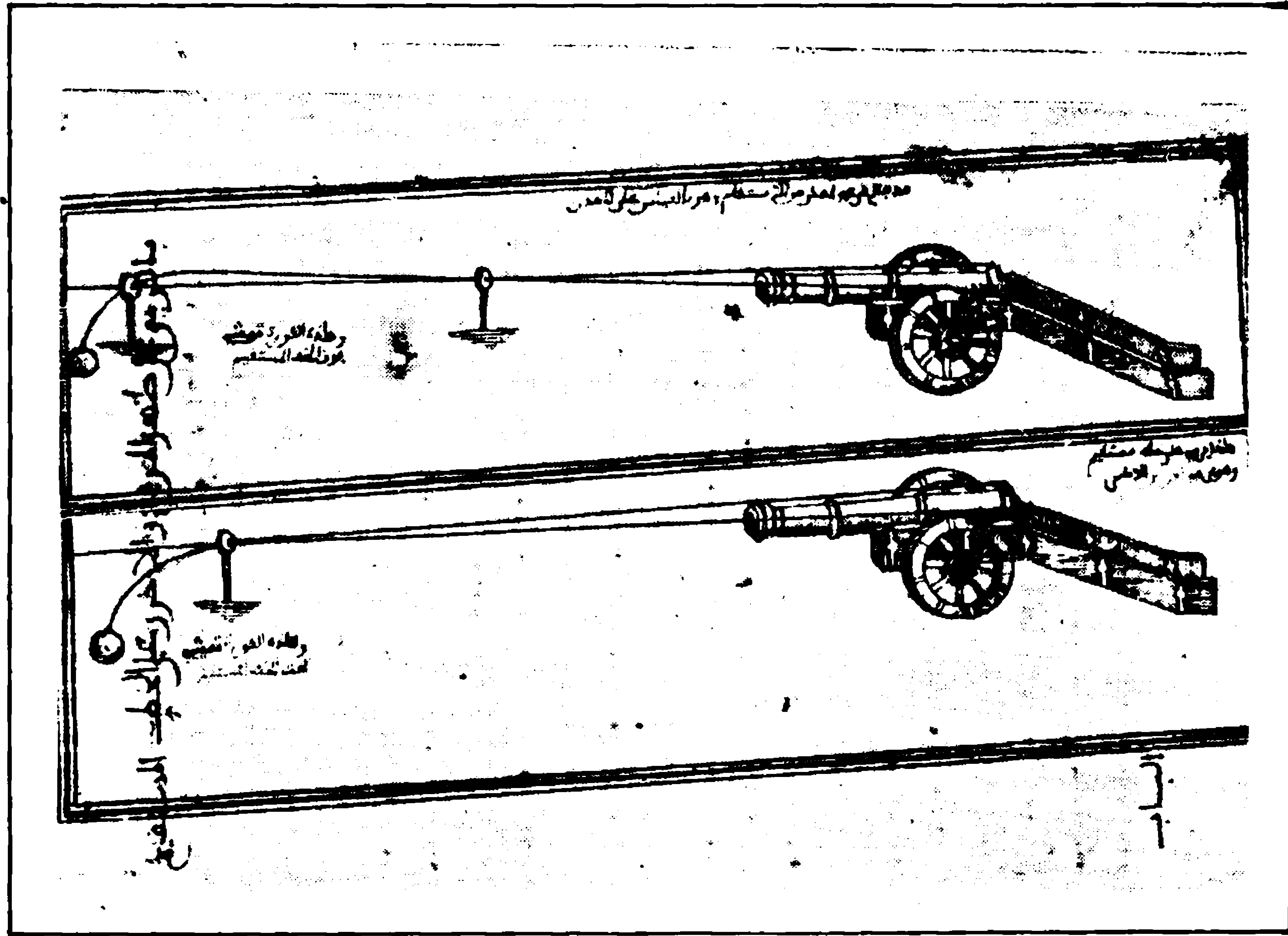
لقد ترك الموريسكيون ضمن ما تركوا للتاريخ تراثا ثقافيا لا يُستهان به، عمد مؤلفوه الى تسجيله بلغة خاصة وجديدة تعدّ من ابتكاراتهم والتي اصطلح على تسميتها باللغة «الألخميادو» ــ أي الأعجمية ــ وقد جاءتها هذه التسمية الغريبة من كونها اعتمدت في التعبير عن معانيها اللغة «الرُّومَنْثِيّة» الاسبانية ــ وهي العامية اللاتينية ــ التي يدخل ضمن دائرتها آنذاك كل من اللهجات البرتغالية والقشتالية والاراغونية والكطلانية وهذا بحسب تواجد الأقليات الموريسكية موزعة على المناطق المذكورة.

وقد سُجل هذا التراث الثقافي الموريسكي كما ذكرت باللغة الرومنثية إلّا أنها اعتمدت الحرف العربي كاطار خارجي عوض الحرف اللاتيني مما يجعل الدارس يقع في ارتباك وهو يقلب صفحات أحد المخطوطات مثلا فيظن أنه بصدد مخطوط عربي إلّا أنه لو حاول قراءته لما فهم محتواه لكونه رومنثي المعاني... ومثل هذه الطريقة التعبيرية نجدها قد عرفت في اسبانيا الاسلامية أيام أوج ازدهارها، وقد لجأ اليها اليهود على وجه التحديد لتخليد مآثرهم الثقافية اذ اعتمدوا الحرف العربي كلبُوس للمعاني العبرية...

نسخة من مخطوط موريسكي لمؤلفه : الرئيس ابراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي وعنوانه : «**العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله**» وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية الشهاب الحجري المتوفى بتونس سنة 1640 وهو كتاب يدور محتواه حول «الجهاد بالمدافع» ما يزال مخطوطا.


صورة للمدفع الهرّاس حين انطلاقه على أحد الحصون، وإلى جانبه عدّة من القنابل


نموذجان من المدافع التي كان يستعملها المجاهدون المسلمون في البحر الأبيض المتوسط في القرن السابع عشر



نموذجان للرمي أحدهما وهو الأعلى يرمى فوق الخط المستقيم،
والآخر يرمى تحت الخط المستقيم

إلّا أن الثقافة المورسكية التي عرفت في شبه جزيرة ايبيريا على أعقاب تسليم غرناطة في 1492 الى غاية التهجير النهائي في عام 1616 نجدها شهدت تفاوتا من حيث نشاطها الابداعي وهذا بحسب المناطق ومدى سعتها وكثافة سكانها من المورسكيين المسلمين، حيث تؤكد المصادر التاريخية على امتداد هذا النوع من الثقافة الهجينة أو «الخلاسية» طيلة القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر الميلادي، فيقول أحد الباحثين المتخصصين في الثقافة المورسكية من المعاصرين ألا وهو الراهب البرو ڤالميس دي فُوينتيس (Alvaro Galmes de Fuentes)، إنه يوجد «أكثر من مائتي (200) مخطوط مورسكي موزعة عبر العديد من المكتبات الوطنية الاسبانية وكذلك الأجنبية، ومعظمها لم يعرف طريقه الى النشر حتى الآن»(1).

ويظهر أن من بين هذا العدد الهائل من المخطوطات المورسكية، أن الذي لفت انتباه الباحثين والمحققين هي تلك المخطوطات ذات الموضوعات الأدبية على وجه الخصوص والتي تعود العناية بها من طرف المتخصصين لكونها ذات علاقة وثيقة الصلة بالأدب المسيحي المعاصر لها، ولأنها نتاج مرحلة معينة مرتبطة ارتباطا حميما زمانيا ومكانيا بتلك الصراعات الحادة بين ديانتين ونظامين حضاريين يختلفان سياسيا واجتماعيا وثقافيا فاعتبرت مثل هذه الوثائق الثقافية بالنسبة لتلك الأحداث خير شاهد على ما ميز تلك الحقبة التاريخية من مستجدات؛ كما جلبت هذه الآداب الأعجمية — المورسكية — انتباه الباحثين اللغــويين نظرا للأهمية التي تنطوي عليها أساليبها البيانية واللسانية ذات الخصوصيات المتميزة كاللهجات التي عبرت بها، وكتفاعل الحرف العربي مع المعنى الأعجمي الرومنثي وهو ما أفضى للمتخصصين بمجموعة هامة من الانماط الصوتية التي ساهمت في كشف العديد من القضايا الألسنية المعقدة، كما كان لها الفضل في كشف التباين بين الأصوات

(1) انظر — Alvaro Galmes de Fuentes : **El Libro de las batallas**, T.1, Ed. Gredos, Madrid, 1975, p. 47.

بين اللغات، بالاضافة الى كون هذا النوع من الابداعات الأدبية كان وليد فترة عرفت بتحولات كبرى على المستويين اللغوي والابداعي وهو ما ساعد على عقد مقارنات، ومقاربات، وموازنات بين هذا النوع من التسجيل الخطي المورسكي وبين النمط الكتابي المعروف عند الكتاب المسيحيين في الفترة نفسها، الأمر الذي مكّن من معرفة دقائق النطق والافصاح الصوتي؛ فمثل هذا الحافز هو الذي ولّد الرغبة في العناية بدراسة مثل هذه المؤلفات الغريبة بالرغم من محتواها الديني الاسلامي الذي لم يلق من العناية مالقيه الجانب اللساني، والصوتي منه على وجه الخصوص لذا انصبت مجموعة من اهتمامات الباحثين المعاصرين على مثل هذه المخطوطات، وبرزت على اثرها أسماء لكبار الباحثين في حقل الدراسات «الالخميادية» كالبروڤالميس «Alvaro Galmes) وأوطمار هيڤي (Ottmer Hegyi) ومانويل آلبار (Manuel Alvar) وكونتزي (R. Kontzi) وغيرهم من الباحثين الذين كشفت نظرياتهم عن مدى أهمية الجانب اللساني في هذا التراث بالاضافة الى التأكيد والاجماع من طرفهم على بروز فعالية روح المقاومة عند الفرد المورسكي الذي أبى إلّا أن يجابه عصره بتحدياته المجسدة في ابتكار مثل هذا النوع من الثقافة المزدوجة والتي كان الهدف من ورائها ايجاد أنجع السبل للتواصل بين طوائف المورسكيين، ومحاولة تبليغهم بقايا عقيدتهم وتراثهم الثقافي حتى يتمكنوا من الحفاظ على مقوماتهم الشخصية كي تنقذهم من خطر الذوبان والاندماج؛ انه وجه آخر من وجوه المقاومة المستميته لدى الفرد المورسكي لمجابهة ما يشبه المستحيل. ولعل الأقليات المورسكية تبقى فريدة من نوعها من هذا المنظور وذلك بعنادها من أجل البقاء حتى ولو اقتضت الضرورات كما هو الحال بالنسبة لها الى ابتكار هذا النوع من الافرازات حتى تكون بمثابة الهوية الناطقة باسمهم والمميزة لكيانهم المهدد بالزوال. ولعل اختيار الحرف العربي في حدّ ذاته كمظهر خارجي للتبليغ من طرف المورسكيين، والذي يعد فارغا من محتواه الحقيقي، لكنه يبقى رغم كل ذلك بمثابة الرداء الاسلامي أو القناع الواقي الذي ما ينفك يلوح كعلامة على مدى التلاقي الجدلي بين الحرف العربي والبُعد الروحي

عند الانسان المسلم المضطهد. انه لحضور دائم يذكر بأبعاد كبيرة يأتي في مقدمتها التشبث اليقيني بالعقيدة الاسلامية، والانتماء الشرعي الى جماعة الأمّة الاسلامية. ولعل تفشي ظاهرة الاقتراض من اللغة العربية وخاصة حين يتعلق الأمر بالشعائر الدينية ليعد في حد ذاته كظاهرة ملفتة للانتباه داخل هذا التراث المتبقي والمسجل بعزيمة المقاومة وهو عكس ما نجده في التراث الموازي المسيحي الذي عمد مؤلفوه بدورهم الى الاقتراض كأحد مميزات عصر النهضة لكنه من الموروث اللاتيني والاغريقي بوصفه المشرب الرئيسي لتنمية اللغات أو اللهجات المحلية. وقد انحسرت أقليات المورسكيين من هذه الناحية بعيدة عن هذا الشعور القومي تجاه مميزات عصر النهضة الأوروبية، وظلت تتعامل في صمت مع موروثها القديم من اللغة العربية أو اللغة الرومنثية متجاهلة لدوران عجلة الزمن، ومثل هذا الانكفاء الرامي الى الانغلاق هو الذي ولّد العناية لدى الدارسين المعاصرين كي يعيدوا النظر في هذا التراث لمعرفة أسرار تطور ظاهرة التواصل اللساني كما ساعدت هذه الظاهرة أيضا على كشف مقاييس التباين والتفاوت اللغوي عند كل من الأغلبية المسيحية التي كانت مسيطرة على الوضع آنذاك وبين تلك الأقليات المنزوية في جيوب التاريخ الجاثم على أطلال الذكريات.

ويأتي كل ذلك ليؤكد الأسباب التي جعلت المورسكيين لا يتفاعلون مع عوامل النهضة الأوروبية رغم تعايشهم مع أحداثها، كما يؤكد على خصوصية البعد النهضوي الأوروبي الذي كانت دعائمه الاساسية منصبة حول ضرورة انبعاث الفكر الغربي منذ أولياته حتى يوحد بين أطراف دويلات عصر النهضة لكنه أمام صمود المورسكيين أو تقوقعهم فان هذا النفس الجديد لم يتمكن من اكتساح هذه الأقليات التي أصرت على الانغلاق والقبول بجريرة التخلف كوجه آخر من وجوه المقاومة حتى ولو كانت سلبية من حيث تجديفها ضد تيار التاريخ.

لذا نجد لتأثير اللغة العربية في الآثار الأدبية المورسكية الحضور البارز حيث زخرت هذه الأعمال بالاقتراض والاشتقاق والاقتباس من كل ما

يمت بصلة للغة العربية وخاصة اذا تعلق الأمر بالمفاهيم الاصطلاحية الفقهية وهو ما نلحظه جليا على سبيل المثال في الملحمة المطولة المعروفة «بقصيدة يوسف» التي سهر على تحقيقها ودراستها المؤرخ الاسباني الكبير رامُون مينينداث پيدال (Ramon Menendez Pidal) ونشرها بغرناطة عام 1952 فظهرت ضمن هذا العمل الشعري الملحمي العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية داخل النسيج الشعري الأعجمي فجاءت بمثابة التضمينات؛ وهي طريقة سلكها الكتاب الموريسكيون في جل أعمالهم الابداعية حتى ميزتهم عن باقي كتاب دويلات عصر النهضة الذين التفتوا بشكل واضح الى موروثهم اللاتيني والاغريقي الذي عُرف فيما بعد بالرصيد الكلاسيكي بالنسبة لموروثهم الثقافي.

الأهمية الأدبية للآثار الموريسكية

لقد تميزت الآثار الأدبية الموريسكية المتبقاة الى يومنا هذا بمسحتها الدينية كعلامة بارزة في مضامينها، وكوجه من وجوه الاستماتة في مقاومة التيارات المضادة لكينونتهم، وهذا الموقف العنادي نجده يتضح بشكل جلي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي الأمـر الذي سبب لهذه الآثار أن تُطوى في عالم النسيان ولم تحظ باهتمام الدارسين المسيحيين الأوائل وأقصد الرواد في ميدان الاستشراق، بل نجد اهتمامهم القليل يظل منصبا على بعض الجوانب الانسانية التي تبحث في ميادين «الأيتيمُولُوجيا»؛ أو «الپيُونِيميا» أو الاشتقاقات أو الاقتراضات أو بعض المصادر للأفعال، أو الدلالات أو التراكيب أو إعراب الجمل، وبالاجمال كل ما يمتُّ بصلة لما هو قديم في تاريخ ظهور اللهجات الرُومنثية المنحدرة من اللغة اللاتينية الأمّ.

لكن مع هذا الانحسار في ضيق الرؤية بالنسبة للآثار الموريسكية الأدبية فإننا نستطيع تسجيل حضورها منعكسا على بعض الأعمال الأدبية البارزة التي ظهرت مع مطلع العصر الذهبي بالنسبة لتاريخ الأدب الاسباني؛ فقد تجلى التأثير الموريسكي واضح المعالم في الأعمال القصصية المعروفة بقصص الفروسية التي طبعت العصور الوسطى

بنزعتها الاحتفائية المشحونة بالخوارق والطقوس البدائية والخرافات، فنجد انعكاس الوهج الموريسكي المقاوم واضح السمات على قصة «حكاية حب پارس وفيانا» (Historia de Los amores de Paris y Viana) التي تعتبر قمة قصص الفروسية في العصور الوسطى نظرا لانعكاس الروح الغنائية، على جوهر محتواها فنالت بذلك شهرة طبقت كامل أوروبا، كذلك نجد مثل هذا التأثير ملحوظ الأبعاد في قصة «كتاب المعارك» (El Libro de las Batallas) وهو بمثابة مجموعة من المرْوِيات ذات الطابع الملحمي الفروسي المشحون بالتكثيف الأسطوري حيث أعطت قسطا وافرا لِتَرْوِيَ أحداث المغازي الاسلامية أيام اندفاعاتها القوية التي قهرت الامبراطوريات واطاحت بالجبابرة كل ذلك ضمن إطار خُرافي تقف فيه حكايات شيقة كقصة «القصر الذهبي»، وأسطورة «الإمام علي كرّم الله وجهه» وتصدّيه للتنّين، وهذا العمل القصصي الشيّق نجده ما يزال محفوظا بالمكتبة الوطنية بمدريد في مخطوط تحت رقم 3226 .. فمثل هذه الأعمال الأدبية التي شارك في نسيج بنائها الدرامي الفكر الموريسكي والذي اعتمدها لبعث الهِمم الاسلامية وسط الأقليات المضطهدة حتى تقف كوجه من وجوه المقاومة التي تأبى الرضوخ للأمر الواقع. ومن منطلق هذه المآثر الخالدات التي تغذي في المسلم الموريسكي روح المجاهدة والثبات اجتهد المبدعون في نسج قصص تاريخية ذات أبعاد حضارية تعود الى ايام ازدهار الوجود العربي الاسلامي على أرض الأندلس؛ من هناك نستطيع أن ندرج ضمن هذا التوجه الابداعي القصة المشهورة المعروفة بعنوان «حمّام زرياب» والمحفوظة اليوم ضمن مخطوطات التراث الموريسكي بمكتبة المجمع الملكي للتاريخ بمدريد، وكذلك بمعهد الدراسات العربية تحت رقم 14 عدد 6؛ حيث تنطلق أحداث هذه القصة الموريسكية من عاصمة الخلافة الأموية قرطبة وتأخذ أبعادها الحضارية من الموروث العربي الاسلامي الذي يعود الى الأيام الأولى من ظهور الدعوة كما أشار الى ذلك الدارس الكبير المستشرق ميڤال آسين بلاثيوس في دراسته القيمة «الأصل العربي في القصة

بسم الله الرحمن الرحيم

مخطوط موريسكي «حمّام زرياب» كتب باللغة «الألخميادية»

الموركسية «حمام زرياب» والمنشورة عام 1924[2] لكن هذه القصة نجدها تكتسي مسحة محلية أندلسية ممّا جعلها تحفل بتسجيل العديد من المظاهر الاجتماعية والثقافية والسياسية لعاصمة الخلافة قرطبة أيام عزها وازدهارها؛ حيث ترتكز أحداثها الرئيسية في عهد المنصور بن أبي عامر الحاجب الذي سجّل الصفحات الطّوال من النصر والعزة لمجد الأندلس في أخريات القرن العـاشر وبدايات القرن الحادي عشر الميلادي مما جعل أوروبا آنذاك تنعته «بسوط الاله» (El Látigo de Dios) وتنعته المصادر التاريخية الأندلسية بكنية «الجلّاب» الذي لا يعود من المعارك إلّا محملا. ونجد كذلك من بين الآثار الأدبية الموركسية قصة «اسطورة يوسف» التي اعتنت بنشرها وتحقيقها ودراستها الالمانية «أورسُلا كلاينك» (Ursula Klenk) في عملها المعروف بعنوان (La Leyenda de Yuçuf en Aljamiado Text (ed.und glossar Anejo de la Zeitschrift für romaniche philologie).Tübingen 1972.

وتتعرض هذه القصة بالسَّرد الى حياة يوسف عليه السلام مُسْتَلْهَمَةً من القرآن الكريم ونجد من بين الآثار الموركسية الهامة في مجال القَصِّ ، قصة «العربي والجارية» التي توجد محفوظة اليوم بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 4953. وتعرض هذه القصة بالتقريب الى وضع المرأة، ومجيء الاسلام وتتمحور موضوعاتها حول الآية الكريمة ﴿**وإذا الموؤودة سئلت بأيّ ذنب قُتلتْ**﴾، حيث تتدخّل العناية الربّانية بواسطة النبي ﷺ لتنقذ هذه الفتاة المحكوم عليها بالقتل ظُلما وعُدوانا من طرف أبويها الكافرين.

ونجد ضمن محفوظات الأقاصيص الموركسية قصة «يعقوب الجزار» وقصة «تميم الدَّار» مرافق النبي ﷺ في رحلته الى عالم الجنّ والذي يشبه دوره الى حدّ ما دور الخضر مع موسى عليه السلام.

---

(2) انظر — Miguel Asín Palacios : **El origen árabe de la novela Aljàmiada «El baño de Zarieb» en homenaje a R. Menendez Pidal.** Vol. I. 1924, pp. 377 - 378.

مثل هذه الأعمال الابداعية القصصية التي خلفها الموريسكيون كذاكرة منسية في غياهب تاريخهم المشحون بالاضطهاد والمطاردة نجدها في معظمها تحاول أن تخترق بوّابات للامل أمام المصير المظلم بالنسبة لهذه الأقليات؛ وقد سجّلت الذاكرة الشفاهية للموريسكيين بالاضافة الى الأقاصيص العديد من النماذج الشعرية الملتزمة هي الأخرى بجوهر القضية التي تتحدث باستمرار عن المصير المحتوم؛ فعرفت بذلك اللغة «الألخمْيَادية» نوعا فريدا من المشاعر المأساوية التي ما تفتأ تكرر النغمات الحزينة التي تشكو من القهر والعدوان كسمة بارزة من سمات ذلك العصر الذي لم يرحم مشاعرهم ولا انتماءاتهم الحضارية ولا شرعية انتمائهم الى وطنهم الذي ليس لهم سِواه. فهذا أحد الشعراء الموريسكيين البارزين في القرن السادس عشر والذي رُحِّل الى الشمال الافريقي والمعروف باسمه الموريسكي المجبر على حمله «المعلم خُوان ألفونسو» (El Maetro Juan Alfonso) ونحن نعرف أن كنية المعلم لا تلحق إلّا أولئك الذين يثبتون جدارتهم في نوع ما من أنواع الخلق والابداع وإلّا ما كانت لتضفى على هذا الموريسكي المشرد لولا اعتراف العصر بموهبته الشعرية ـــ فهذا الشاعر ما فتىء يعلن صرخات مدوية في وجه الاسبان المتعصبين الذين خانوا العهود وعبثوا بالمواثيق فيخاطبهم في احدى مقطوعاته الشعرية باللغة «الألخميادية» والتي ما تزال هي الأخرى محفوظة في مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 9067، جاء في احدى مقطوعاتها قوله :

... غُراب ملعون انت أيها الاسباني
انت يا ذا الرؤوس الثلاثة
أيها الواقف على بوّابة الجحيم[3].

كما نجد لهذا الشاعر وقفات نثرية ينعت من خلالها المتغطرس الاسباني «بخائن العهد الذي أقسم أن يحفظه»، ويصب جام

(3) انظر **Manuscrito de la B.N. de Madrid** n° 9067 citado por E. Saavedra —

غضبه على رجال الدين زبانية محاكم التفتيش ورأس كل ضلال فينعتهم «بالذئاب التي تسرق دون أي شفقة والذي طبع عملهم بسمة الطاغوت والكبرياء والتنكيل والكفر والجبروت «وينعتهم بكل الأوصاف الدنيئة البعيدة كل البعد عن كل ما هو انساني وروحاني ومتحضر.

أما ما ميّز هذه الآثار الموركسية كظاهرة عامة هو شكلها **العَامِّي** الملفت للانتباه الأمر الذي فسح أمامها مجال الانتشار بين مختلف الأوساط الاجتماعية من مورسكية مسلمة ومسيحية مما مهّد لها الأجواء لتغطية حاجة الجماهير البسيطة من الثقافة فأصبحت لسان حال الشعب وحازت بذلك ورقة الثقافة الشعبية التي تحولت الى عملة متداولة تعبث بالمحظورات والحواجز المعلنة من طرف محاكم التفتيش؛ كما اكتسبت تأشيرة الثقافة الشعبية أيضا والتي من مميزاتها الاساسية حجب المؤلف وانفتاحها على أي نوع من أنواع الاضافات أو التشذيبات أو التنقيح وهذا بحسب المناطق التي تتداول فيها... إنها باختصار تحوّلت الى ثقافة الكل وهذا بطبيعة الحال يدخل ضمن السياق المورسكي الذي سوف نشير اليه فيما بعد كأحد مظاهر الثقافة المورسكية آنذاك؛ ألا وهو اللجوء الى أسلوب «التقيّة» لاتقاء شرَّ من أحسنوا اليهم في يوم ما..! وبهذا أصبحت معظم الآثار الابداعية المورسكية المكتوبة باللغة «الألخميادية» مجهولة المؤلف واستحالت الى ملك مُتاح الى الذاكرة الجماعية، أما طابعها العام فهو السهولة المتناهية من حيث الأسلوب والأداة وبعدها الكلي عن أي مظهر من مظاهر الحذلقة والتصنع الذي هو من خصوصيات التأليف الفردي.

«الألْخَمِيَادُو» كمظهر من مظاهر الثقافة المورسكية

لقد خلّد المورسكيون رغم القهر والحصار مجموعة من الآثار الفكرية والأدبية، نستطيع حصر محاورها الرئيسية في المجالات التالية :

1 ــ هناك كتابات كثيرة ذات الموضوعات الدينية وتشكل هذه الأخيرة نصف التراث المتبقي من ذاكرة الموركسيين أو أكثر وذلك نظرا لدور الوازع الديني الذي اعتمدته الأقليات الموركسية كأحد أسلحة المقاومة لرد الهجمة الصليبية الشرسة على كيانهم الحضاري ومقوماتهم الروحية الاسلامية.

2 ــ وهناك نوع ثان من الكتابات الموركسية وهي ذات الطابع القصصي الذي استمد مادته من تاريخ الفتوحات الاسلامية، وبطولات المغازي التي لعب فيها الجانب الأسطوري والخرافي أهم الأدوار لاخراجها من حيّز الواقعية الى ما يشبه الواقعية المثالية؛ وكل ذلك مبعثه الالحاح الدائم من أجل إيجاد معادل موضوعي للبقاء والاستماتة في وجه تحدّيات الطغيان الصليبي الذي يحاول بشتى الأساليب إبادة كينُونَة كل ما هو غير مسيحي.

3 ــ وهناك كتابات ذات الموضوعات الجدالية والتي خصّصها الموركسيون للدفاع عن عقيدتهم ومحاولة اظهارها على عقيدة خصومهم، كذلك محاولة إثبات صلاحية البقاء لما هو أصلح كتمجيد للشريعة المحمدية بأنها خاتمة الأديان وأن نبي الاسلام هو رسول وما أنزل عليه كان الحق من رب العالمين.

4 ــ أما النوع الرابع والأخير تقريبا فهو الذي اختص باظهاره الفقهاء الباقون من تشريعات اسلامية تنظم حياة الموركسيين المسلمين المحاصرين في دار الغربة البعيدة عن دار الاسلام الأمر الذي جعلهم في أمس الحاجة الى من يأخذ بيدهم ليطلعهم على تعاليم دينهم ودنياهم.

وكخلاصة لما سبق ذكره نستطيع القول إن الكتابات ذات الموضوعات الدينية والتي يأتي في مقدمتها الاهتمام الشديد بالقرآن الكريم هو الموضوع الذي حاز القسط الأوفر من اهتمام الموركسيين : هذا

نموذج من مخطوط موركسي باللغة الألخميادية ما يزال محفوظا في معهد الدراسات العربية بمدريد تحت رقم N° L I

بالاضافة الى الجوانب الأدبية الأخرى والتي سبق وأن أشرت الى بعض العينات منها في المجال القصصي على وجه الخصوص.

الكتابات المورسكية الدينية

ان ما يميز هذه الآثار الفكرية المنحدرة إلينا من ميراث الموركسيين هو طغيان الكتابات الدينية فيها على بقية الأنواع الأخرى؛ وذلك لما في دور الدين من قاسم مشترك يربط بين مختلف الأقليات الموركسية، والتي ترى فيه أحد المقومات الاساسية لابراز شخصيتها والذي في مقدوره وقايتهم من مغبة الانسلاخ والذوبان والرضوخ لارادة الخصم العاتي. لذا برزت الكتابات الدينية طافحة على سطح أغلبية الآثار الفكرية الموركسية وقد حظي بالاهتمام على رأس هذه الكتابات الدينية كتاب الله جلّ وعَلَا المنزّل على نبيّه محمد ﷺ؛ فتحول بذلك القرآن الكريم الى الينبُوع الذي لا يَنضب بالنسبة لحياة الموركسي الذي وجد فيه ضالته ومرشده ومستقر أمنه وأمله في جو انعدم فيه بصيص الرجاء من يد قد تمتد لانقاذهم من عدو تربص بهم من كل الدوائر. من هنا تحول القرآن الى المصدر الحيوي الذي يخط للموركسي طريق حياته في الدنيا والآخرة، كما اعتمده كتشريع يسنّ له أنماط المعاملات والسلوكات التي تضمن له حرية البقاء وفُسحة الأمل.

لكن للحصار المسيحي المشدد على رقابهم ما يقوله في هذا المضمار إذ تمكن من إحداث الفجوة المُخلّة بالتقاء الموركسي مع كتابه المقدس حيث عزلهم عن التخاطب المباشر مع القران لأنه أعدمهم وسيلة الالتقاء معه وهي اللغة العربية الأمر الذي أوقع الموركسيين مكرهين إلى اللجوء الى وسيلة الترجمة، أو ما ترجم من نسخ قرانية يعود ظهورها كما نعرف الى تلك الترجمات التي بدأها أحد رهبان كلوني (Cluny) المعروف باسم پيدور المكرّم (Pedro el Venerable) «ـــ 1092 ـــ 1156» والذي يتفق ومناسبة زيارته الى اسبانية عام 1141 حيث كلف على إثرها روبرتو دي كيطون (Roberto de Ketton) بترجمة القرآن الى اللغة

اللاتينية وبهذه المبادرة الأولى عرفت أروبا أول ترجمة للقرآن والتي كانت حافزا لظهور ترجمات أخرى تعاقبت فيما بعد(4).

إلّا أن الموركسيين بحكم التزامهم بمبدإ التقية، وابتكارهم للغة جديدة في التخاطب بينهم جعلهم يحرصون على توفير ترجمات الى اللغة «الالخميادو» حتى تكون مفهومة من طرف جميع المورسكيين، وتكون بمثابة الوسيلة الوحيدة المتاحة أمامهم للولوج الى عالم القران، لأن اللغة العربية توشك أن تنقرض من حياتهم بحكم الظروف القاسية كحظرها ومصادرتها واتهام المتلبس بها بالجريمة العظمى.

فمثل هذه الظروف هي التي أوجبت عليهم اعتماد أسلوب«التقية» انطلاقا من التوجيه القرآني الذي يراعي قبل كل شيء اليسر والأمان للمسلم وعدم الالقاء بنفسه الى التهلكة إذا احتدم الصراع وحل فيه الكفر عن الايمان، ويوضح هذا المبدأ في جلاء وشرح المخطوط المورسكي المحفوظ اليوم بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 9656 حيث يفصل القول في الأسباب والدوافع التي ألجأت المورسكيين الى اتباع أسلوب التقية كحل لاخيار معه.

من هنا نجد القرآن يتحول الى الكتاب الاساسي بالنسبة لحياة المورسكيين ومن أجل هذه العناية المتزايدة حظي بالعديد من الترجمات الفريدة من نوعها الى اللغة «الالخميادية» وهو الأمر الذي فتح الباب أمام العديد من الدارسين المعاصرين لعقد مقارنات علمية بين مختلف الترجمات وذلك مثل ما فعلت الباحثة الاسبانية لوصادا كامپو (T. Losada Campo) في كتابها القيم «دراسات حول النصوص القرآنية المكتوبة باللغة «الألخميادية» والمنشور ببرشلونة عام 1977. (Estudios sobre Coranes Aljamiados)

كذلك فعل الباحث الانجليزي والاستاذ بجامعة لندن هارفي L.P. Harvey إذ قدم بحثا قيما في هذا المجال، كما كان له الفضل أيضا في

(4) انظر — Teresa Losada Campo : **Estudios sobre Coranes aljàmiados**, Ed. Universidad de Barcelona, 1977, pp.11 - 12.

اعداد دراسة لاحدى المخطوطات الموريسكية المعروفة بعنوان«غلام أريفلو والأدب الألخميادو» (El Mancebo de Arévalo y la Literatura Aljamida؛ وقد نشر هذا البحث ضمن منشورات الدراسات الدولية المخصصة للأدب الألخميادو والموريسكي . وقد لاحظ الدارس الانجليزي مدى أهمية مثل هذه الترجمات الموريسكية للقرآن، ومدى مفعولها في الأوساط الموريسكية التي أصبحت بمعزل عن كل ما يمت بصلة الى تعاليم الدين الاسلامي، ففتحت بهذه الوسيلة الضيقة والمحدودة كوة لتطلعنا على قيمة المعاناة التي كانت تنوء بحملها هذه الاقليات المضطهدة، والتي تنم ثقافتها المحدودة عن ظاهرة التقهقر الثقافي الذي يعاني منه الفرد الموريسكي المحروم من كل ما من شأنه أن يغذي إحساسه بالمواطنة والانتماء. فيذكر الباحث الانجليزي في دراسته نصا من المخطوط الموريسكي الذي سبق ذكره يؤكد فيه الحاجة الماسة الى ضرورة اللجوء الى مثل هذه الترجمات حتى وإن كانت دون المستوى وذلك نتيجة ابتعاد الموريسكيين الكلي عن مصادر الثقافة العربية الاسلامية، وجهلهم للغة العربية فيقول النص الموريسكي المكتوب باللغة «الالخميادية» لقد كانت غيرتهم على التمسك بالدين الاسلامي في هذه الجزيرة المتجهمة والمظلمة هي التي جعلتهم يعتمدون مثل هذه الترجمات وذلك نظرا لفقدان المتفقهين في العلم أيضا»[5].. ثم يواصل المخطوط قائلا : «إن الذين يعيشون اليوم وبفضل الله سيواصلون الى زمن آخر لقد افتقدوا النور والمدارس واللغة العربية ..»[6]. إن الدافع الذي فرض على الموريسكيين اعتماد مثل هذه الترجمات القرآنية وحفظها وتحفيظها واستظهارها لامسوغ له سوى التشبّث بروح المقاومة قصد المحافظة على قيمهم الروحية ومعالم شخصيتهم الحضارية ومحاولة الظهور المستمر بمميزات تبرزهم داخل مجتمع غير متجانس معهم، فكل مايرغبون في الحصول عليه هو بقاؤهم على دين ملّتهم مع حذرهم الشديد من كل ما

(5 — 6 —) — Harvey L.P. : «**El Mancebo de Arévalo y la Literatura aljămiada**»actas del coloquio internacional sobre la literatura Aljamiada - Morisco Oviedo 1972, Ed. Gredos. Madrid 1978, pp. 68-70.

من شأنه أن يورطهم في مظاهر البدع التي قد تضللهم عن سواء السبيل مما حدا بهم الى الوقوع في التزمت الشديد المنغلق، لكن إقدامهم على الاستعانة بمثل هذه الترجمات قد يعدُّ في حد ذاته أحد مظاهر البِدع لأن اللغة «الألخميادية» ما أظنها تسعفهم على توصيل بلاغة القرآن الى أفهامهم، وخاصة أنها لغة محدودة الانتشار وتعد من مخلفات العصور الوسطى. الا ان تشبثهم بها وعدم استجابتهم لمظاهر التغيير اعتبروه من أسلحة المقاومة. وفي آخر المطاف تبقى مثل هذه الأقليات الحريصة على التقوقع لا ذنب لها سوى أنها مُرهقة بطول الحصار بالحديد والنار وسط مجتمع يتلمظ حِقدا وكراهية لكل ما هو غير مسيحي من هناك وكما يقول الباحث الانجليزي هارفي (Harvey) «إنهم أصبحوا بمثابة الكائنات التي تنتمي الى العصور الوسطى إلّا أنها غارقة في محيط عصر النهضة فلفظوا في شواطئه المضادة لكل اصلاح؛ لكنه مع كل ذلك يبقى الأدب الموركسي ينطوي على بعض الخصوصيات التي تجعل منه ظاهرة ثقافية معبرة عن عصرها»(7).

من هنا يتجلى أمامنا حرص الموركسيين الذي بدأت تباشيره منذ استسلام غرناطة عام 1492 لينصبَّ هاجسهم على ترجمة كل ما هو ديني الى اللغة «الألخميادية» أو تقريب مفاهيمه من الاقليات الموركسية حتى لاتفقد رباطها الحضاري مع موروثها، لأن العلاقة أو صلة القرابة بين الطائفتين الموركسية والمسيحية نجدها تعرف انفصاما يكاد يكون نهائيا على أعقاب انفجار ثورة جبال البشارات الشهيرة (Alpujarras) الواقعة بضواحي غرناطة وذلك منذ عام 1568 بسبب صدور المرسوم الملكي الممهور من طرف الملك فيليب الثاني والذي أفصح محتواه عن مجموعة من المحظورات أو التراجعات بالنسبة للحرية المعطاة الى الموركسيين في معاهدة الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا وفرناندو» فصدر الأمر مثلا بمنع الموركسيين من التحدث باللغة العربية، ومنعهم كذلك من ارتداء الملابس العربية الاسلامية المميزة لهم، ومنعهم من امتلاك أو

(7) المصدر السابق.

الذهاب الى الحمامات لِأنّ النظافة تعد من خصوصيات المجتمع الاسلامي لذا توجب الوقوف ضدها، كذلك منعهم من إقامة الاحتفالات الدينية أو الدنيوية كالأعياد والأعراس وعدم احيائها بكل ماهو غير مسيحي، مع تأكيد المرسوم على إلزام المورسكيين بإبقاء بيوتاتهم مفتوحة الأبواب أيام حفلاتهم حتى يرى ما يقام فيها، كذلك ألح المرسوم على وجوب إبقاء ابواب المنازل مفتوحة أيام الجمعة للتأكد من عدم ممارسة المسلمين المورسكيين لفريضة الصلاة، كذلك جاء المرسوم يفرض عليهم ترك أسمائهم العربية الاسلامية واستبدالها باسماء مسيحية، ونتيجة هذه القرارات التعسفية المجحفة اندلعت ثورة جبال البشارات تحت قيادة بطلها المجاهد المكنى بابن أمية والتي منها وُضع الحد الفاصل تقريبا للعلاقة بين المسلمين المورسكيين والمسيحيين وفُسح المجال أمامهم للصدام المستمر الأمر الذي جر على المورسكين أن يخيروا بين أمرين أحلاهما مر كما يقال فإما قبول مبدإ التعميد والدخول في الديانة المسيحية أو التهجير إلى أرض غير مسيحيةَ ومن هذا التاريخ نستطيع إيجاز مسيرة العذاب التي عرفها المصير المحتوم المورسكي في ثلاث مراحل حاسمة :

فالمرحلة الأولى امتدت منذ استسلام غرناطة عام 1492 إلى غاية 1499 وهي المرحلة التي أوكل فيها أمر المورسكيين إلى رحمة الكاردينال هيرناندو دي تالابيرا (Hernando de Talavera) الذي عمد الى سياسة اللين مع المتنصرين من المورسكيين حتى يشوق البقية الباقية إلى اتباع نفس المصير، وحتى يلهمهم لنسيان عقيدتهم معتمدا في كل ذلك على سياسة الرفق الملفوف في ثوب المكر والمراوغة.

أما المرحلة الثانية والممتدة ما بين 1499 إلى غاية 1501 فقد ظهر فيها الكاردينال الشرير خيمينيث دي ثيزنيروس (Jimenez de Cisneros) الذي على يده عُرفت أعتى مراحل المورسكية وذلك لانتهاجه سياسة العصا الغليظة كما يقال حيث فضل أسلوب فرض الأمر الواقع والتنصير الاجباري والمرابعة والاضطهاد والقتل والتشتيت وإزالة كل ما من شأنه أن يذكّر المسلمين بماضيهم، لقد كانت مرحلته من أتعس ما تجرعه

المورسكيون من ويلات، ويكفي للتدليل على تعصب هذا الكاردينال أنه كان قائد الحملة الّتي أرادت استئصال المورسكيين حتى من ديار الاسلام، إنه الضارب لمدينة وهران والممعن في أهاليها بالقتل والتشريد.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فإنها قد امتدت إلى غاية القرن السابع عشر والتي ظهر فيها دور الملوك مدعما بمحاكم التفتيش التابعة للكنيسة الكاثوليكية المتعصبة حيث عمدوا إلى طمس كل المعالم الحضارية العربية الاسلامية كتحويل المساجد إلى كنائس وتهجير المورسكيين إلى مناطق شمالية بعيدة عن مسقط رؤوسهم وباختصار محاولة تغيير الخارطة المورسكية مع الشروع في عملية الحرق التاريخية لكل ماهو ثقافة عربية اسلامية وقد شهدت مدينة غرناطة أشهر حريق تاريخي للكتب العربية الاسلامية وذلك في ساحتها المعروفة باسم باب الرملة ، اذ تواصلت النيران فيها أياما وهي تلتهم حصاد الفكر ولم ينج من هذه الجريمة التاريخية إلّا بعض المؤلفات الطبية التي حولت لتدعم جامعة (Alcala de Henares) بالشمال.. ومن أجل هذه المعاملة الاجرامية وغيرها شرّع علماء الاسلام مايخول للمسلمين ترك ديار الكفر هروبا بدينهم وقد كانت لفتوى الفقيه الونشريسي صدى كبيرا في أوساط المورسكيين الذين استجاب بعضهم الى ندائها فالتحق ببرّ العدوة وضمن ما يشبه سلامته. وتعاقبت على إثر هذه الفتوى مجموعة من الفتاوى الأخرى التي تنص على تحريم سكنى المسلمين ببلاد النصارى وهو حل قاصر كما يرى لأنه لبى رغبة محاكم التفتيش. وساعد على إطفاء شعلة المقاومة ولذلك اعترض مجموعة من المورسكيين على مثل هذا الاجتهاد القاصر واعتبروا أصحابه ميسّر لهم التفوه به لأنهم يعيشون بعيدا عن موطن الاحداث، والشعور بالمواطنة تجاه الأرض لا يعنيهم في شيء وقد تجاهلوا أن حب الاوطان من الايمان، لذا كان الامر صعبا على بعض المورسكين كي يغادروا بمثل هذه السهولة مواطن حبهم وعيشهم وقد أجاد الكاتب الاسباني الشهير ميڤال دي ثيربانتس **Miguel de Cervantes** التعبير عن هذا الشعور في كتابه الخالد دون كيخوطي دي لامنْتشا (Don Quijote

(de la Mancha، والمعاصر للاحداث فجاء في الجزء الثاني ص 54 هذا النص الذي انتحله ثيربانتس على لسان من كان أعلم الناس في زمانه ألا وهو المفكر الأندلسي المسلم محمد بن أحمد الرَّقُوطي المُرْسي المكني بأبي بكر والذي يقول في حقه المؤرخ الاسباني الكبير رَامُون مينندث پيدال (Ramòn Menendez Pidal) في كتابه «التاريخ العام للآداب الاسبانية» وهو بصدد الحديث عن أعمال الملك الفونسو العاشر المعروف بالحكيم (1252 ــ 1284) في حقل نقل العلوم والآداب الأندلسية الى أوروبا اذ عرف هذا الملك قدر العالم الرقُّوطي وأوكل إليه عام 1269 مهمة الاشراف على دار الترجمة التي أوقفها عليه في مدينته مرسية، واذا كانت المراجع الاسبانية تشيد بهذا العالم الجليل فاننا نجد المصادر الأندلسية بدورها تكشف عن مواهبه وقد رأت هذا الرجل الذي يسميه مينندث پيدال أعلم أهل زمانه، فيقول ابن الخطيب في احاطته ما نصه في حق هذا العبقري الذي اختاره ثيربانتس ليحمله رسالة الشعور بالمواطنة على لسان المورسكيين المضطهدين.. فيقول ابن الخطيب «نسبته الى رقّوطة (Ricate) بلدة صغيرة تقع على مقربة من مرسية على الضفة الغربية لنهر شقورة (Segura) عالما طبيبا مهندسا، موسيقيا رياضيا فيلسوفا.. آية الله في معرفة الألسن يقرىء الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها. شديد البأو مترفعا متعاطيا. عرف طاغية الروم حقه ــ يقصد الفونسو العاشر الملك الحكيم ــ لما تغلب على مرسية فبنى له مدرسة ــ هنا يتفق مع نص مينندث پيدال ــ يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود ولم يزل معظما عنده فطلب منه ان يتنصر فأبى»(8). وهذا العالم الجليل الذي تنافس في علمه ملك النصارى وملك غرناطة نجد ابن الخطيب يوضّح مصير اختياره حيث يقول : وطلب سلطان المسلمين ثاني الملوك من بني نصر ــ يقصد محمد الثاني ملك غرناطة المعروف بلقب الفقيه (671 ــ 701)، (1272 ــ 1302) ــ واستقدمه وتلمذ له. واسكنه في أعدل البقع

(8ــ9)لسان الدين بن الخطيب : **الاحاطة في أخبار غرناطة** تحقيق عبد الله غنان الجزء 3، القاهرة 1976، ص 67 ــ 68.

من حضرته. وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له، وهو بيدي الآن ـــ أي يملكه ابن الخطيب ـــ فتعلم عليه الطب والتعاليم وغيرها. اذ كان لا يُجارى في ذلك، وكان قوي المعارضة مضطلعا بالجدل وكان السلطان يجمع بينه وبين مُنتابي حضرته ـــ قصد امتحان علمهم ـــ ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما، فيظهر عليه لتمكنه والّته»[9]. وقد أسهبنا في ذكر هذه الحقائق حول هذا العالم الجليل الذي يعود الى القرن الثالث عشر الميلادي لنبين مدى أهميته التي جعلت كاتبا كثيربانتس في أعظم مؤلفاته التي تعود الى القرن السابع عشر الميلادي يخصه بالذكر لينتحل على لسانه هذا النص المعبر عن مدى ارتباط الموريسكي بأرضه الأندلس، فيقول الرقّوطي مخاطبا الملك سانتشو الرابع الملقب بالشجاع (Sancho IV El Bravo) (1284 ـــ 1295) الابن المتمرد على أبيه الملك الفونسو الحكيم : «أينما تريدنا أن نكون سوف نبكي اسبانيا لأنها مهبط ولادتنا وموطننا الأصلي، فلا يمكن اذا لأي بقعة من احتضان حظنا المنكود حتى ولو كانت أرض البرابرة ولا أي مكان من افريقيا قد يستقر بها قرارنا أو يتم على أرضها استقبالنا. فهناك سيكون رفضنا وستكون إهانتنا، إننا لم نعرف طعم السعادة إلّا ساعة افتقادنا اليها، وإننا لنحيى بالأمل الكبير الذي يُمنينا بالعودة الى اسبانيا. وخاصة أولئك الذين يعرفون اللغة وما أكثرهم مثلي سوف يعودون اليها وهناك سيستقر أزواجهم وأولادهم. إنه لكبير الحب الذي يُكنونه اليها، والآن بوسعي أن أعترف وأفصح عما يمكن أن يقال : انه للذيذ حب الوطن»[10].

وبعد هذه الجولة العاطفية مع نص ثيربانتس الذي يقر في مضمونه بروح المواطنة لدى الفرد الموريسكي ويعترف له بحق الوجود على أرض اسبانيا تجدنا ملزمين بطي هذا الفصل من الثقافة الموريسكية والتي يمكن ملاحظة ما ميّز جانبها الديني أنه كان شهادة حيّة على روح التحدي

---

(10) انظر — Miguel de Cervantes: **Don Quijote de la Mancha,** T. II, p. 54

لظروف التاريخ وحتمية الأقدار، وأن هذا الجانب من التراث الموركسي ليعد من الأهمية بمكان بالنسبة لذلك العهد، كما يعتبر مجالا رحبا بالنسبة للدراسات المعاصرة التي أبهرت باحثيها قدرة الموركسي على خلق المستحيل كاعتماده الترجمة القرآنية إلى لغة تعكس في حيّزها المعنوي جسامة الشتات الذي يعاني منه الموركسي الذي عمل ما في وسعه وهو يترجم القرآن أن يبقي على النص الأصلي الى جانب ترجمته حتى يضمن ولو بصيصا شاحبا قد ينبعث من تلك الأحرف العربية التي يتمسَّحُ عليها الموركسي عساها تبعث فيه أمل عودة ما عصفت به يد الحدثان. وبهذه الطريقة تمكّن الدارسون المعاصرون من الوقوف على مختلف أساليب الترجمات «الألخميادية» وذلك بمقابلتها مع بعضها ومع أصولها فمكنهم ذلك من التحقق من قدرة ما بقي من فقهاء على ظهر شبه جزيرة ايبيرا، وعلى مدى فهمهم للغة العربية واللغة الرومنثية وكذلك المستوى الثقافي الذي بقى من الثقافة الأندلسية في زمن القهر والاضطهاد.

الفصل السادس

بعض مظاهر الانتقام الصليبي من حماة الموريسكيين بالجزائر على عهد الأتراك العثمانيين

قبل أن نلج هذا الموضوع الشاق والخطير يجب أن نضع في الحسبان أن تاريخ استسلام غرناطة عام 1492، واكتشاف العالم الجديد كان لهما الأثر الفعال في بروز الشخصيتين الطاغيتين ايزابيلا وفرناندو الكاثوليكيين، حيث كان لِقرانهما السياسي والمصلحي ما دفع بهما لتوحيد شطري المملكة المسيحية وإظهارها بصبغة دينية ميّزتها عن باقي ممالك عصر النهضة وخوّلت لها ريادة العالم الأوروبي الذي كان يحتفظ بمفاتيح مشاريعه التوسعية في حجر البابوات بمعلم الكنيسة المقدسة. كما كان لأحداث سقوط القسطنطينية قبل استسلام غرناطة بأربعين سنة في يد العثمانيين الأتراك ما أوغر صدر الحقد الصليبي على كل ما من شأنه أن يمتّ لغير الصليب بأي صلة. من هناك كانت بدايات المأساة، ومن هناك تفجرت محفزات النعرات العدائية للشعور الديني المبيّت في قلوب عتاة الصليب حتى يثأروا لعاصمة الامبراطورية البيزنطية وللثمان قرون خلت من الازدهار الحضاري العربي الاسلامي على أرض شبه جزيرة ايبيريا. ومن هناك أيضا حقَّ لحماة الصليب بأن ينعتا عبر التاريخ باسم الملكين الكاثوليكيين (Los Reyes católicos)، وينطلقا معا في طموحاتهما الدينية والسياسية لتشييد الامبراطورية الالهية بالغرب الأوروبي لمواجهة الامبراطورية الاسلامية العثمانية بالمشرق، لذا لا يمكننا أن نستغرب مما حصل بين القوتين العظميين آنذاك في المعركة الفاصلة التي

دارت رحاها في حدود 1571.

ان الحمية الدينية التي طبعت الامبراطورية المسيحية الاسبانية جعلت شغلها الشاغل وهاجسها النابض عبر حياتها يتطلع دوما الى أمنية الخلاص مما هو غير مسيحي وذلك بالسهر المضني على ما يدعى بتطهير الدم المسيحي من كل بقايا العصور «الخُلاسية» (Mestizaje) التي زعموا أنها أرهقت شبه جزيرة ايبيرا لذا كان لظهور رجل ديني مثل الكاردينال فرانثسكو خيمينيث المعروف بثيزنيروس(Francisco Jimenez Cisneros)فيه أكثر من ضرورة بل كحتمية تاريخية لحمل مشعل الانتقام ورفع صولجان الصليب على أنقاذ الأبرياء والمستضعفين في الأرض، وبخاصة بعد موت الملكة الكاثوليكية ايزابيلا القشتالية حامية حمى الصليب. فكان لظهور هذا الشخص الموعود بالنسبة للكنيسة، والذي أقدم على جرائم لم يقدم على مثلها رجل دين من قبل ولا من بعد في حق المغلوبين من المسلمين على أرض الأندلس مما أجبرهم على ركوب روح المقاومة الرافضة والمسجلة في تاريخ 1500 و1568 و1570 وما بعدها من تواريخ الانتفاضات المورسكية التي أفضنا في شرح أحداث بعضها وابراز مسبباتها.

لقد تغذى ثيزنيروس لبن الحقد في كنيسته على كل ما هو إسلامي ومن هناك خامرته فكرة «الحرب المقدسة» (Guerra Santa) ليعلن مشروعيتها على كل ما هو غير مسيحي ففسح المجال بذلك أمام الرغبات الجامحة للملوك في أحقية التوسع على حساب الآخرين فأعلنت على اثرها نواقيس الكنائس أوار الحرب المقدسة لمطاردة المسلمين الفارين من الاندلس الى أرض الهجرة، وبالتحديد أرض المغرب العربي الاسلامي الذي سيصبح مسرحا لأعنف الصدام بين الملتين وكان تسجيل أول حضور صليبي عل أرض المغرب الاسلامي، أو على أرض الكُفّار (Infieles) كما تقول مصادرهم في تاريخ 1496 حيث استقرت أول قاعدة عسكرية أمامية بقيادة بيدرو دي استُوبينيان (Pedro De Estopiñan) باسم سيده دوق مدينة سيدونيا (El Duque de Medina

(Sidonia فاستولى على مليلة المغربية وعلى أعقابها اندفعت حملاته لتتوّج بانتصارها المقدس على المسلمين والمتمثل في الاستيلاء على المرسى الكبير بضواحي وهران عام 1505. وبعد هذا التاريخ مباشرة وبالتحديد في عام 1508 تمكن القائد الكوند بيدرُو نافارو (El Conde Pedro Navarro) من الاستيلاء على الصخرة المعروفة ببيليث دي لاڤوميز (Velez de la Gomera) وهي عبارة عن جزيرة جد ممنعة نظرا لتحصيناتها الطبيعية وتابعة لمقاطعتي سبتة ومليلة، وفي الوقت ذاته تمكن البرتغاليون الغزاة من الاستيلاء على مملكة فاس واحتلال سبتة وطانجة.

وقد ساعد الحضور المسيحي الاسباني ببقاع المغرب الاسلامي في توغله السريع في العديد من قواعده مظاهر الانشقاق والضعف الذي كانت تعاني منه دويلات المنطقة فعلى اثر سقوط فاس مثلا نجد الأمير يحيى أخ ملك فاس يرفع راية الانشقاق ويعلن ولاءه للنصارى مقدما مقابل ذلك العديد من التنازلات التي يأتي في مقدمتها الحياد ومساعدة المدّ المسيحي على التوغّل في أرض الجزائر الأمر الذي شجع الكاردينال ثيزنيروس على تقديم كل أرصدة كاتدرائية طليطلة العظمى كهبة سماوية لتمويل الحملة الصليبية ضد وهران، كما قدم البابا بدوره كل الأرصدة المعدة لتمويل هجمة الصليبيين على أرض المقدس معتبرا ما تقوم به الامبراطورية المسيحية الاسبانية يدخل في اطار المخططات الصليبية المعلنة على دار الاسلام.

ففي ربيع عام 1509 تقدم القائد بيدرو نافارو رفقة الكاردينال ثيزنيروس تجاه مدينة وهران فوقعت تحت أسرهما وواصلا زحفهما السريع والمباغت فاحتلا ربوة الجزائر وبجاية، وجزيرة لاڤولات ــ قرب مدينة تونس ــ وكذلك طرابلس وقد ساعدهما في زحفهما السريع على مناطق بلاد المغرب الاسلامي ما كان ــ يعاني منه الوضع السياسي لدويلات المنطقة التي كانت ترزح تحت نير الضعف والانحطاط فكانت السلطنة الحفصية بتونس تحتضر، ومملكة بني عبد الواد بتلمسان تعاني من التطاحن الداخلي، أما فاس فهي على مشارف الزوال، كما عرفت هذه الدويلات تراجعا اقتصاديا ملحوظا انتهى بانقراض التجارة

الافريقية جنوبا وتحوّلها شطر مصر والمشرق بعد أن كانت معينا لا ينضب من الذهب الافريقي الذي يصبّ في أسواق ديولات المغرب الاسلامي، كما زاد هذه المناطق بلّة النزوح المستمر والمكثف للاجئين الموريسكيين الذين غصّت بهم عواصم دول المغرب فأفقدوها توازنها الاقتصادي والديموغرافي، هذا بالاضافة الى الصراعات الداخلية التي لم تبق على الرجال الأكفاء، كما كان للكوارث الطبيعية دورها في تفقير المنطقة وتخلفها. أما المجالات الثقافية وكساد أسواقها فحدّث ولا حرج عن ضحالة مردودها وخاصة أن هذه الدويلات الغاربة قد انكفأت عن ذاتيتها المنهزمة ووضعت عصابة على عينيها حتى لا ترى كل مستجدات عصر النهضة الأوروبية ففرضت عليها الحتمية التاريخية أن تبقى على هامش التاريخ الامر الذي سهل مهمة الامبراطورية المسيحية الاسبانية كي تتسلم مفاتيح سلطنة بني عبد الواد بتلمسان بدون مقاومة تذكر وكذلك سلطنة بني حفص لتجعل من جامع الزيتونة فيها اسطبلا للخيول، كما تقدمت لها بالولاء اللامشروط على طبق من ذهب بالمجان كل المقاطعات شبه المستقلة التي تحكمها بعض العائلات المتسلطة والواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط.

لكن هذه الانكسارات الاسلامية لم تغرق في سبات القدر المحتوم بل نجد على أعقاب وفاة الملك الكاثوليكي فرناندو عام **1516** يتمكن بعض الاشراف من المسلمين في مدينة الجزائر من اعلان عصيانهم ضد المملكة المسيحية الاسبانية ويشعلون نار الانتفاضة الشعبية، لكن ساعة وقوعهم تحت وطأة الخطر المؤكد أعلن كبير المقاومة انذاك الشيخ سليم تومي عميد أشراف الجزائر صرخة التوسل بالأخوين عروج وخير الدين(1) اللذين كانا يفزعان آنذاك الوجود المسيحي في عرض البحر

(1) أصل خير الدين باشا من أروام جزيرة (مدللي) احدى جزائر الروم، وكان هو وأخ له يدعى (أوروج) يشتغلان بحرفة القرصنة ببحر الروم ثم أسلما ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس واستمرا في حرفتهما وهي أسر مراكب المسيحيين التجارية وأخذ كافة ما بها من البضائع وبيع ركابها وملاحيها بصفة رقيق وفي ذات يوم أرسلا الى السلطان سليم الأول احدى المراكب المأسورة اظهارا لخضوعهما لسلطانه فقبلها منهما ...

الأبيض المتوسط ما بين أعوام (1504 ــ 1512)، فاستجاب عرّوج بربروس لنداء وُجهاء الجزائر ودخلها دخول الفاتحين المعول عليهم لكن محاولاته المتكررة لزحزحة الاسبان عن كاهل قصبة الجزائر لم يتوج بما كان منتظرا مما حدا بالشيخ سَلِيم الى التآمر عليه مع الاسبان الغزاة، لكن هذه الخيانة كلفته حياته في الأخير فدفعت بابنه يحيى بن سليم ليعلن ولاءه للغزاة الاسبان علانية حتى يثأر لأبيه، فانطلق الى اسبانيا طالبا الدعم واللجوء السياسي فاستجابت الامبراطورية الى مطالبه وأوفدت معه قوات بحرية هائلة تحت قيادة ديافُو دي فيرا (Diego de Vera) وذلك في 20 من شهر سبتمبر عام 1516 فنزلت هذه القوات بوادي الحرّاش قرب الجزائر وسجل في هذا اللقاء الكبير أول انتصار لصالح عرّوج بربروس واتباعه مما جعل نجمه يسطع وينفتح باب الرجاء والتوسل أمام الوفود التي قدمت اليه من تلمسان وتونس لتطلب مساعدته لاغاثتهم وانقاذهم من الهيمنة المسيحية الاسبانية فانطلق عروج بربروس رفقة القائد المعروف أحمد بلقاضي ليطيحا بالخائن الشيخ حميد عابد حليف المسيحيين الاسبان، كما أطاحا بالملك الزياني حليف الغزاة أيضا مولاي حمُّو الذي فر ليلتحق بقاعدة وهران عام

... وأرسل لهما خلعة سنية وعشر سفن ليستعينا بها على غزو مراكب الافرنج فقويت شوكتهما واشرأبت أعناقهما لاحتلال بعض سواحل بلاد الغرب باسم سلطان آل عثمان فاستولى خير الدين على ثغر (شرشال) باقليم الجزائر ثم عاد الى تونس ومنها أرسل الى السلطان سليم الأول الذي كان آنذاك بمصر رسولا يدعى (كرداوغلى) يؤكد لديه إخلاصه وولاءه للسدة السلطانية العثمانية. أما أوروج (عرّوج) فبعد أن استولى على مدينة الجزائر نفسها وهزم الجيوش الاسبانية التي أرسلها شارلكان لمساعدة الجزائريين على محاربة عرّوج فتح أيضا مدينة تلمسان وقتل بعدها بقليل في محاربة الاسبانيين لكن لم يتمكن هؤلاء من استخلاص تلمسان والجزائر بل حفظهما خير الدين (المعروف في كتب الافرنج باسم باربروس أي ذي اللحية الصهباء). وقتل أمير الجزائر وأرسل من قبله أحد أتباعه واسمه الحاج حسين الى السلطان سليم (وقد كان أتم فتح مصر) ليخبره بفتح الجزائر باسمه الشريف فقابله السلطان وعين خير الدين باشا بكلربك على إقليم الجزائر وبذا صار هذا الاقليم ولاية عثمانية يدعى فيها في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه».

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، الطبعة الثانية بمطبعة محمد أفندي، مصر، سبتمبر 1896 م، ص 95.

1517 فتمكن الغزاة من اعادة عرشه بعد شهرين وذلك بمساعدة حاكم وهران المركيز دي كومارش (El Marquez de comeres) والقائد دِياڤو نافارُّو دي قرطبة (Diego Navarro de Córdoba)، بفضل العوائق التي جعلت الامدادات العسكرية الموفدة من قبل خير الدين لا تصل في وقتها الى تلمسان لانشغالها في الطريق بقوات اسبانية كان يقودها مارتين روخاس (Martín Rojas) على مقربة من قلعة بني راشد، ورغم هذا الخلل تواصل القتال على أشده بين قوات عروج وقاعدة وهران وما جاورها قرابة ستة أشهر كادت فيه الدوائر تكون لصالح عروج. لكن مدد القائد مارتين دي أثوطي (Martín de Azote) المعتبر أنقذ الموقف مرجحا كفة النصر لصالح الغزاة الاسبان فانهزم أتباع عروج وسقط هو شهيدا وذلك في عام 1518.

وبعد مرور ثلاثة أشهر عن هزيمة تلمسان تقدمت هجمة مسيحية أخرى بنيّة الاستيلاء على مدينة الجزائر بقيادة هُوڤُودِي مُونكادا (Hugo de Moncada) لكنها انتهت بهزيمة الغُزاة أمام أسوار الجزائر وذلك بفضل المقاومة الشعبية التي وفّرها سكان الجزائر لمؤازرة قائدهم خير الدين، وعلى إثر هذا الانتصار الكبير أعلن خير الدين في الجموع خطابه التاريخي الذي صرح فيه عن رغبته في الانسحاب من مدينة الجزائر والعودة الى القسطنطينية وتسليم مقاليد الأمور الى أصحاب المدينة، لكن هذا النبأ المفاجىء لم يلق ترحيبا من سكان الجزائر بل جابهوه بالرفض الجماعي واجمعوا كلمتهم على إعلانه ملكا عليهم وكتنازل من خير الدين لرغبة الجميع قرن بقاءه بشرط أساسي مفاده أن تصبح الجزائر تابعة للإيالة العثمانية وهو الشرط الذي استجابت له رغبة الأهالي بدون أي تحفظ يذكر وبذلك تم تعيينه من قبل السلطان العثماني سليم كأول حاكم للجزائر من قِبل الباب العالي.

فسجل التاريخ بعد هذا الحدث سنوات من الاستقرار امتدت ما بين (1519 ــ 1529) متوجة بالقضاء على الفتن الداخلية، وبتنصيب

خير الدين للديوان كهيئة عليا لادارة شؤون البلاد مكون من الأهالي الجزائريين.

ومنذ استقرار خير الدين كحاكم للجزائر من قبل الايالة العثمانية شرع في مُواجهة الغُزاة الاسبان برا وبحرا وذلك لتطهير محيط المدينة منهم لأن في حضورهم على مشارف الجزائر المطلّة على مراسيها عرقلة كبيرة لاستتباب الأمن فكان أول ما بادر به في عام 1529 هو حملته على هذا الخطر المحدق بالمدينة فتمكن على إثره من طردهم وفسح المجال نهائيا أمام بحارته والقراصنة الموالين لنفوذه بالتحرك الحرّ والسريع وقت الضرورة. وقد سجل تاريخيا على أعقاب حملة التطهير هذه أولى بدايات تحكم القرصنة الجزائرية في عرض البحر الابيض المتوسط حتى بلغت شواطىء اسبانية مستجيبة لاغاثة المضطهدين من المورسكيين فكانت جولاتهم تعود بالعديد من الأسر الفارة من وطأة محاكم التفتيش لتعرف استقرارها في الجزائر وتصبح من العناصر الفعّالة في محيطها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والأمني.

ونتيجة لانتصارات خير الدين المسجّلة ما بين 1529 و1532 في عرض البحر ضد الغُزاة الاسبان عينه السلطان العثماني أميرا لرياس البحر (Gran Almirante) ليكون على رأس الأسطول العثماني وكان ذلك عام 1533 وقلّد ابنه حسن آغا كأول باي للجزائر إكراما لخدمات والده، وفي العام نفسه تمكن خير الدين من الاستيلاء النهائي على مخلفات السلطنة الحفصية بتونس وذلك بالقضاء على آخر سلاطينها المدعو مولاي الحسن الذي قدم نفسه وملكه للاسبان فأصبح يدين لهم بالولاء والجزية والتبعية فحلت عليه بذلك لعنة العامة والخاصة متهمة إياه بالخيانة العظمى للدين الأمر الذي أثار حفيظة الاسبان فأمر الامبراطور شارلكان (كارلوس الخامس) بتجهيز حملة لتأديب الاتراك العثمانيين قِوامها أربع مائة قطعة بحرية محملة بثلاثين الف محارب تحت قيادة آندريا دُوريا (Andrea Doria) وذلك في 20 من شهر جويلية فاسترجعت مدينة تونس وأعيد على رأسها شبه السلطان مولاي الحسن فزاد من

تنازلاته للغزاة أن أهدى لهم عربون ولاء مطلق جزيرة لاڤولات لتصبح قاعدتهم.

وعلى إثر هذه الأحداث تراجع خير الدين ببوارجه ليحصّن مدينته الجزائر أكثر ويستأنف نشاطه البحري على طول السواحل الاسبانية والايطالية ملحقا بها العديد من الخسائر والهلع ومعرقلا لتواصل طرقاتها التجارية فيما بينها وبين حلفائها ومستعمراتها الجديدة الأمريكية مما أرغم الامبراطور على محاولة وُلوج باب التفاوض مع خير الدين حتى تُتاح له فرصة مجابهة فرنسا لكن شروط خير الدين كانت في منتهى الصرامة والصراحة تعذر على الامبراطور الاستجابة لها لأنها تضع كشرط مبدئي لفتح التفاوض أن يتم إجلاء الاسبان الغزاة عن وهران الأمر الذي تعذر معه إيجاد صيغة أخرى لفتح باب التفاوض.

وفي هذه الظروف السياسية المتأزمة التي تعذرت فيها لغة الحوار، استفحل سلطان رياس البحر ليضربوا هذه المرة أقوى من سابقاتها سواحل الامبراطورية المسيحية الاسبانية ويُعرقلوا طرقاتها التجارية فقرر الامبراطور كمخرج مشرف لصَوْلجانه أن يقود بنفسه حملة صليبية ضد «عشّ لصوص البحر»، الجزائر كما تسميها المصادر الأوروبية، قصد استئصال شأفة القراصنة، أو لصوص البحر كما يسمونهم[2]. فاختار الامبراطور عام 1541 لغزو مدينة الجزائر مغتنما فرصة غياب خير الدين بالقسطنطينية، فداهم بأعتى أسطول عرفته المسيحية آنذاك لكن المفاجأة كانت مخبأة له وراء حصون الجزائر التي ربض سكانها وراء قيادة حسن آغا فكانت هزيمة ما بعدها هزيمة لحقت بالامبراطور حامي حِمى المسيحية وظهرت بعد هذا الحدث التاريخي مدينة الجزائر بمظهر المدينة

---

(2) تطلق المصادر الأوروبية على الموالين لبحارتها انذاك مصطلح (Corsarios) أي القرصان وتطلق على الجزائريين مصطلح (Piratas) أي لصوص البحر والفرق بين المصطلحين أن الأول يكون نشاطهم مشفوعا بشرعية البلد الذي ينتمون اليه في حين الثاني، هم لصوص لا انتماء لهم وقد يسطون حتى على البلاد التي قد ينتمون اليها. لذا يطلق مصطلح (Pirata) على الجزائريين من قبل المؤرخين الأوروبيين للتحقير من قيمتهم التاريخية.

التي «لا تُغْزَى» أو لا تقهر أو تقتحم عُنوة (Inconquistada). فلفتت انظار العالم وتحولت إلى إحدى القواعد العظمى التي يُحسبُ لها ألف حساب في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد دفع هذا الانتصار العظيم بالباي حسن آغا الى الوقوف أمام الاسبان ثانية بمدينة وهران قصد إجلائهم عنها، لكن محاولة 1542 لم يكتب لها النجاح نظرا للتحصينات الكبيرة التي تتمتع بها هذه المدينة البحرية وكنتيجة للوقوف الذي أظهره الاسبان في هذه المناسبة اندفع حاكم وهران ليشن حملات متوالية بهدف التوسع فداهم تلمسان وخلع سلطانها مولاي أحمد حليف الأتراك العثمانيين واستخلفه بأخيه مولاي عبد الله الذي ادخروه بوهران كلاجئ سياسي فوقع معهم معاهدة الولاء عام 1543 الأمر الذي جرّ عليه نقمة العامة والخاصة واعتبروا فِعْلته وصْمَةَ عارٍ في جبين شرف الأمة الاسلامية، لكن هذا الولاء لم يدم طويلا لأن حسن آغا أعاد الكرة على تلمسان عام 1550 وتمكن من انقاذها نهائيا من يد الغزاة الاسبان.

لكن حاكم وهران نجده يحاول تعويض ما ضاع منه فيولي وجهه شطر مستغانم لتأديب حاكمها حمودة بن عودة حليف الأتراك العثمانيين لكنه يعود بخيبة أمل أودت بحياة ابنه وسقوط معظم قواته في معركة مزغران الشهيرة التي اندحرت امام قوات الباي حسن آغا وذلك في عام 1545.

وبعد هذا الانتصار تقدمت القوات الجزائرية لتطهير سواحل البلاد الشرقية فتمكنت من طرد الغزاة الأسبان، من بجاية وذلك عام 1556 فترك هذا الحدث ارتياحا كبيرا في الأوساط الاسلامية، وفُتح بذلك باب من بوابات النجاة أمام المورسكيين الفارّين من الاضطهاد. فكان لحضورهم أثره الفعال في تنشيط الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد.

وفي العام نفسه خرج حسن القرصان لمهاجمة وهران بثلاثين قطعة بحرية وأربعة آلاف تركي مُدعمين بستة آلاف من الأهالي المتطوعين ومدعمين كذلك بالأسطول العثماني بقيادة علي البرتغالي، لكن أوامر

السلطان القاضية بتحويل وجهة الأسطول شطر جزر مُور حالت دون ترجيح كفّة الانتصار فرفع الحصار على مدينة وهران بعد ستة أشهر متتالية دون نتيجة وهو ما شجع حاكم وهران كعادته على إعادة الكرة الى مدينة مستغانم عام 1558 لكن قبل وصوله الى المدينة تجددت له واقعة مزغران فكلفته حياته واندحار قواته.

وفي عام 1563 هاجم الباي حسن باشا قاعدة المرسى الكبير برا وبحرا لكنه مُني بهزيمة على يد قائد القاعدة آنذاك مارتين دِي كوردبا (Martín de Córdoba) المدعم بالأسطول الملكي بقيادة فرانشسكو دي مندوثا (Francisco de Mendoza).أما ما بين 1563 أو 1571 فقد سجل التاريخ أعظم الأحداث الجِسَام في تاريخ التصادم بين الروح الصليبية الحاقدة والمد الاسلامي المسجل على يد الأتراك العثمانيين ففي عهد كل من حسن باشا وعِلج علي سجل الحضور المكثف للقرصنة الجزائرية في عرض البحر الأبيض المتوسط أعنف هجوماته، كما أحدثت أخبار المقاومة المورسكية المسلحة بجبال البِشَارات (1568 — 1570) أعظم التضحيات، وسجل كذلك التاريخ حدث انهزام الأسطول العثماني أمام التحالف الصليبي الكبير في معركة (Lepante) الفاصلة وذلك عام 1571. فكلّ هذه الأحداث أضرمت من سعير الحقد الصليبي ضد الاسلام، وفي المقابل جعلت من الجزائر التي كثيرا ما ينعتها الأوروبيون «بعش القراصنة» دار الجهاد الاسلامي التي تُعَلّق عليها آمال المسلمين لذا نرى نزوة الملك فيليب الثاني المنتصر على العثمانيين تتجسّد في هجومه البربري على تونس بقيادة أخيه خُوان ذي أوستريا (Juan de Austria) بطل معركة (Lepante) فداهمها بقواته التي عاثت في مدينة تونس فسادا وأعاد سلطانها المهزوم الى عرشه وذلك في شهر أكتوبر عام 1573، لكن الحظ لم يسعفه طويلا اذ أن الباي عِلج لم يتردد في مهاجمة تونس والقضاء على أثر الحفصيين نهائيا، وعلى الوجود الاسباني في عام 1574 فطهّر منهم أرض تونس وما والاها.

لكن بعد بدايات عام 1575 انتهج الملك الاسباني فيليب الثاني

نهجا جديدا في سياسته الخارجية تجاه الباب العالي فدخل في مفاوضات الصلح قصد تفرغه لمشاغبه الأوروبية وبخاصة قضايا البروتستنيين في شمال أوروبا فتمكن عام 1580 من تحقيق معاهدة هدنة، لكنها لم تُرِحْ كاهل مملكته من جراء قلق القراصنة الجزائريين.

وعلى اثر ظهور خلفه فيليب الثالث (1598 ـــ 1621) الذي أوقد نار الفتنة الصليبية من جديد بسياسته الممثلة في اقدامه على اصدار قرار طرد المورسكيين من كامل اسبانيا ما بين (1609 ـــ 1616) فانه أغلق كل أبواب التقارب مع جيرانه بالمغرب العربي الاسلامي، بل شرع في تنفيذ سياسته التوسعية بمداهمته للجزائر في العديد من المرات فغزا منطقة ازخرون عام 1603 ومنطقة جيجل عام 1605 بعد أن تمكن من ابرام تحالف مع البربري المتمرد المدعو «ملك كُوكو» حاكم منطقة القبائل الكبرى، لكن ردّ فعل القرصنة الجزائرية كان مواكبا مع الأحداث فأثقلوا كاهل المملكة المسيحية بغاراتهم المتعددة على سواحلها مما أفقد الاسبان وسيلة أمن الطرقات التجارية.

أما منتصف القرن السابع عشر فقد سجلت فيه أحداث لم تكن بذات القيمة المعتبرة وخاصة من الجانب الاسباني الذي توجهت عناية حُكام قاعدته وهران الى البحث عن أسلوب جديد للتوسع على حساب الأمن الداخلي للمقاطعات التابعة لباي الجزائر أو باي مُعسكر، فسجلوا عدة غارات في عمق التراب الوهراني تجاه الجنوب والغرب بحثا عن المغانم، وفي محاولة يائسة عام 1686 بغرض الاستيلاء على معسكر لكن دون جدوى.

أما الجانب الجزائري فان سياسته العليا للبلاد ارتأت ان تولي عناية خاصة للقاعدتين الكبيرتين وهران والمرسى الكبير ومحاولة زحزحة النفوذ الاسباني عن كاهلهما فكان هدف باي الجزائر هذه المرة هو استئصال هذا الوجود اللاشرعي مغتنما فرصة الخلافات السياسية التي تعيشها المملكة الاسبانية، وكذلك سقوط كل من جبل طارق وجزيرة مينورقة في يد بريطانيا. ففي خِضم هذه الأحداث انطلق باي معسكر محمد بوشلاغم

في هجومه الكبير على وهران عام 1707 فحاصرها مدة سنة انتهت بتقهقــر حاكم وهران آنذاك دُون ملتشور دي أبيليانيدا (Don Melchor De Avellaneda) الى المرسى الكبير وذلك في 4 من شهر نوفمبر من السنة نفسها فاسحا المجال بتراجعه لقوات الباي كي تدخل وهران لأول مرة بعد قرنين، منتصرة، لكن أنظار كل من الباي حسن آغا وحسن بوشلاغم اتجهتا الى المرسى الكبير فوحّدا جهودهما وطوقاها مدة ستة أشهر الى غاية 7 أفريل عام 1708 اليوم الذي ألقي فيه القبض على قائد الحاميات الاسبانية، وبهذا الانتصار التاريخي الذي جاء بعد 199 سنة من الاستعمار الاسباني لوهران والمرسى الكبير تم تطهير سواحل المغرب الاسلامي وأعلن هذا الخبر في أرجاء العالم الاسلامي ليدوي المنابر والمآذن ومجالس العلم.

أما في اسبانيا فان هذا الخبر المُرعب نجده يهُز أرجاء الجزيرة ويسجل استياءا كبيرا في الأوساط ممّا سبب موجة من الاحتجاج ضد الحكومة ولم يكن الرأي العام الدولي بمعزل عما يدور أو أقل رحمة في تشفيه من انهيار الكرامة الاسبانية بنفوذها العسكري وفتوحاتها الصليبية الأمر الذي حفّز الملك فيليب الخامس بعد تحكّمه في الوضع من اعلان خطّة جديدة لاسترداد وهران مهما كلف الثمن غاليا، ومن مدينة اشبيلية في 7 من شهر جوان 1732 تُلي بيان خطته على مسامع كافة أوروبا. وفي 15 من الشهر ذاته تحرك أسطوله الذي ضم ثلاثين ألف محارب تحت قيادته فنزل بسواحل عين الترك قرب وهران وفي اليوم نفسه تمكن من استرجاع وهران والمرسى الكبير وبذلك حافظت المملكة الاسبانية على ماء وجهها مسترجعة هيبتها، لكن النبأ كان شديد الوقع على الجزائر حتى تسبب في اقالة الداي كُورد علي (1724 ــ 1732) وجاءت محاولة كل من باي معسكر والداي الجديد ابراهيم في عام 1733 لاسترجاع القاعدتين لكن جهودهما باءت بالفشل، وعلى اثر هذه المستجدات من الأحداث يدخل النفوذ البحري الجزائري عهد التقهقـر، ولا نراه يعرف الانتعاش إلّا على عهد الداي الشهير (الأعرج) محمد بن عثمان باشا

الذي سيحكم الجزائر من 1766 إلى غاية 1791 تاريخ استرجاع وهران... ولعل عهد عثمان باشا يعدّ أوج ازدهار السيادة الجزائرية التي فرضت وجودها العسكري الذي مكّنها من ارضاخ اسبانيا الى المفاوضات الطويلة والشاقة والتي كانت فيها المرسى الكبير ووهران هُما رهان السلم الموعود. ونحن اذ نقف عند هذا الحدّ في هذه العجالة التاريخية فلا لشيء سوى لأننا أتينا تقريبا على إبراز الوجه الصليبي الذي كان دأبه اقناع العالم بشرعية الحرب المقدسة لمعاقبة الكَفرَة ومطاردتهم من أي أرض قد يحلّون بها.

مراجع الفصل السادس

اعتمدت في تحضير هذا الفصل على مراجعة الكتب الآتية :

1 — Calindo y de Vera : **Historia de Espaṅa respecto a sus posiciones en las costas de africa.** Madrid 1884
2 — Garcia Figueras Tomás : **Presencia de Fspaṅa en Berbería Central y oriental (Tremecén, Argel, Túnez y Tripoli)**, Larrea, Madrid 1943.

— وبعض القراءات الأخرى

المراجع حسب ظهورها

1 — Dr. don joaquín Vallvé : **Libertad y esclavitud en el Califate de Córdoba.** Ed. Actas de las II jornadas de la Cultura árabe e Islámica, I.H.A.C. Madrid 1980

2 — Pierre Guichard : **Al-Andalus. Estructura antropológica de una sociedad islámica en Occidente,** Barcelona 1976.

3 — Jacinto Bosch Vilá : **El elemento Humano Norte africano en la Historia de la España Musulmana (Separata de la Revista** Cuadernos de la B.E. de Tetuán), n° 2, Noviembre 1964.

4 — ياقوت الحموي : معجم الأدباء. ج 2، ط 2، القاهرة 1938.

5 — **Una crónica anónima de'Abd al-Raḥmān III al-Nāṣir,** editada por Lévi-Provençal y E. García Gómez - Madrid -Granada 1950.

6 — ابن حيان القرطبي : المقتبس، ج 5، تحقيق بيدرو شالميتا ود. محمود صبح، نشر المعهد الاسباني العربي، مدريد 1983.

7 — Dr. Pedro Chalmeta : **Precisiones acerca de'Umar b. Hafṣūn,** Ed. Actas de las II jornadas de C.A. C.I. ed. I.H.A.C. Madrid 1980.

8 — أحمد مختار عبد الفتاح العبادي : **الصقالبة في اسبانيا، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية.** نشر وزارة المعارف العمومية، المعهد المصري للدراسات الاسلامية، مدريد 1953.

9 — مؤلف مجهول : **اخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم.** تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981.

10 — ابن حزم الأندلسي : **الردّ على ابن النغرلّه اليهودي ورسائل أخرى.** تحقيق د. احسان عباس — دار العروبة، القاهرة 1960.

11 — محمد المنوني : **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين** تطوان المغرب 1950.

12 — المقري : **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب...** ج 6، **تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط 1،** القاهرة 1949.

13 — د. اسعد حومد : محنة العرب في الأندلس. نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980.

14 — سيمون حائك : صُبح البْشكنسية أوالأندلس على عهد الحكم المستنصر والدولة العامرية. نشر مطابع الكريم الحديثة، بيروت 1976.

15 — Claudio Sanchez Albornoz : **La España Musulmana (según los autores islamistas y cristianos medievales)**, 2a ed., 2 tomo, Ed. Buenos Aires (Argentina) 1960.

16 — Pierre Vilar : **Histoire de l'Espagne**, Paris 1958.

17 — Juan Regla : **Estudiòs sobre los Moriscos**, Ed. Ariel Barcelona 1974.

18 — Boronat y Barrachina (Pascual) : **Los Moriscos Españoles y su expulsión**, Ed. Imprenta Francisco Vives y Mora.Valencia 1901.

19 — Julio Caro Baroja : **Los Moriscos del Reino de Granada**, 2a ed. ISTMO, Madrid 1976.

20 — Louis Cardaillac : **Le passage des Morisques en Languedoc.** Montpellier, 1970.

21 — Louis Cardaillac : **Morisques et Chrétiens; un affrontement polémique** (1492 - 1640), pub. C.N.R.S., Paris 1977.

22 — María del Carmen Pescador Del Hoyo : «Cómo fue de verdad la toma de Granada» a la luz de un documento inédito. Revista Al-Andalus n° 20. 1955.

23 — Rachel Arié : **Algumas reflexiones sobre el Reino Nasrī de Granada en el siglo XV**, B.A.E.O. XXI. 1985.

24 — Jaime Bleda : **Crónica de los Moros de España**, ed. Felipe Mey.Valencia 1618.

25 — Gaspar Aguilar : **Expulsion de los Moros de España por S.C.R. Magestad del Rey Don Phelipe Tercero (III) Nuestro Señor.** Valencia en Casa de Pedro Patricio Mey junto a San Martin 1610.

26 — Juan Méndez de Vasconcelos : **Liga deshecha por la expulsion de los Moriscos de los reynos de España**, Madrid, por Alonso Martin año 1612 a Costa de Domingo Gónzalez, mercader de libros.

27 — Vicente Pérez de Culla : **Expulsion de los Moriscos rebeldes de la sierra y Muela de Cortes por Siméon Zapata Valenciano del Colegio de la Campañía de Hermanosde Gandía**, Valencia, por Juan Bautista Marcal, junto a San Martin, M. DC. XXXV.

28 — Henri Lapeyre : **Géographie de l'Espagne Morisque**, Paris, S.E.V.P.E.N., 1955.

29 — Antonio Dominguez Ortiz : **Felipe II y los Moriscos** col. M.E.A. Granada 1959.

30 — مؤلف مجهول : **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر**، تحقيق الألماني ماركوس خوزيف موليير، ميونيخ 1863.

31 — Damian Fonseca : **Justa expulsion de los Moriscos de España con la instruccion apostasia y traycion dellos y respuesta a las dudas que se ofrecieron acerca desta materia, Roma 1612.**

32 — **Alvaro Galmes de Fuentes : El Libro de las Batallas**, Tomo I. ed. Gredos, Madrid 1975.

33 — Miguel Asin Palacios : **El Origen arabe de la novela aljamiada «El bano de Zarieb»** en homenaje a R. Menendez Pidal, Vol. I. 1924.

34 — Teresa Losada Campo : **Estudios sobre Coranes aljamiados.** ed. Universidad de Barcelona 1977.

35 — Harvey L.P. : **El Mancebo de Arévalo y la literatura aljamiada, actas del coloquio international sobre la literature aljamiada,** Morisca, Oviedo, 1972, Ed. Gredos. Mardid 1978.

36 — لسان الدين بن الخطيب : **الاحاطة في أخبار غرناطة** ج3، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة 1976.

37 — Miguel de Cervantes : **Don Quijote de la Mancha,** Tomo II.

الفهرس



الدكتور عبد الله حمادي
أستاذ مبرز بجامعة قسنطينة

نشر مجموعة من البحوث الأدبية في الأدب الأندلسي و
والأسباني واللاتينو أمريكي. كما ترجم مجموعة من الأعمال
عالميين أمثال بابلو نيرودا، وغارسيا ماركيز وغارسيا لوركا.
وله نشاطات واسعة في مجال الصحافة الجزائرية.

صدر للمؤلف

□ **الهجرة الى مدن الجنوب**

(ديوان شعر). نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر سنة 1981

□ **تحزّب العشق يا ليلى**

(ديوان شعر ومقدمة). مطبعة البعث ــ قسنطينة ــ الجزائر سنة 1982.

□ **غابرييل غارسيا ماركيز.. رائد الواقعية السحرية.**

المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر سنة 1983.

□ **قصائد غجرية**

(ديوان شعر) المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر سنة 1983.

□ **اقترابات من الشاعر الشيلي الأكبر...** بابلو نيرودا

ــ الدار التونسية للنشر 1985 وطبعة مشتركة ما بين الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر 1985

□ **مدخل الى الشعر الاسباني المعاصر**

(دراسات) ــ المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر سنة 1985

□ **دراسات في الأدب المغربي القديم**

□ **رباعيات آخر الليل** (شعر)

ISBN 9973 . 12 . 133 . 3 .